بسم الله الرحمن الرحيم

رواية في التزكية والسلوك · سبعة أجزاء

عِش كعابد

من اليقظة إلى القرب
بصحبة رجل لا يلتفت إليه أحد

تنبيه: الشخصيات من الخيال، وهذه رواية للاعتبار وليست مرجعاً في الفتوى

الفهرس

محتويات الكتاب

م مقدمة — مقدمة: في حضرة الصمت
م رسالة مفتوحة — كلمة قبل أن نبدأ، من أخيك
١ الجزء الأول — اليقظة
01 الفجر الذي لا يشبه الفجر
02 دفتر الحساب
03 باب التوبة
⚖ ميزان الجزء الأول — في الغفلة واليقظة
٢ الجزء الثاني — الطريق
04 ورد الصباح
05 الرجل الذي يحتاج إلى دليل
06 صلاة لا يُسمع فيها إلا القلب
⚖ ميزان الجزء الثاني — في الذكر والصحبة والخشوع
٣ الجزء الثالث — الأثر
07 اليد الفارغة
08 البحر لا يعتذر
09 آخر الدفتر
⚖ ميزان الجزء الثالث — في الغنى الأصيل
• استراحة بين الطريقين: المقام والحال
٤ الجزء الرابع — القلب الحاضر
10 العين التي لا تنام
11 الذي لا يريد شيئاً
12 الكذبة الصغيرة
⚖ ميزان الجزء الرابع — في الباطن والظاهر
٥ الجزء الخامس — التسليم
13 اعقلها وتوكل
14 دفتر الشكر

15 حياء الخلوة
⚖ ميزان الجزء الخامس — في الأخذ والتسليم
٦ الجزء السادس — المودة في القربى
16 بين يدي الحسين
17 أدب الزيارة
18 حب بلا غلو
⚖ ميزان الجزء السادس — في المودة والاعتدال
٧ الجزء السابع — القرب
19 كيف تكون محمدي المنهج والسلوك
20 المحبة
21 كلنا فقراء
22 ما ينتفع به
خ خاتمة الكتاب — وصايا العابد
⚖ ميزان الكتاب — في ختام الطريق
خ ختام — خاتمة: مناجاة الختام
ت توثيق — ملاحظة المؤلف عن المصادر

مقدمة

مقدمة: في حضرة الصمت

م

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أيقظ من شاء من غفلته، وفتح لمن شاء باب الرجوع إليه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الهادي إلى صراطه المستقيم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يا أخي، قبل أن تقلّب أول صفحة، دعني أقف معك على الباب وقفة المحتاج. إني لا أكتب إليك من مقام العارف، فما أنا بعارف، ولا من مقام المعلّم، فما أنا بمعلّم. أكتب إليك كما يكتب أحد المتعثّرين إلى رفيق يمشي في الطريق نفسه، يتعثّر ويقوم ويسأل الله أن يثبّت قدميه.

ويقال على ألسنة أهل الطريق إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ومعناه أن لكل قلب باباً يُطرق منه، وأن الله أعلم بمن يفتح له وكيف. وهذا كتاب عن بعض هذه الأبواب: عينٌ تنتبه، وقلبٌ يحضر، وعمل صغير يدوم، وصحبة صادقة تُعين، وأثرٌ يبقى في الناس بعد صاحبه. فإن وجدت فيه خيراً فمن فضل الله وحده، وإن وجدت فيه خطأً فمن نفسي ومن الشيطان.

فاقرأه على مهل. وبين الصفحة والأخرى ارفع رأسك واذكر الله، واسأله أن يجعلك ممن إذا ذُكّروا ذكروا، وإذا أخطؤوا عادوا. ومن عرف لي دعوة في ظهر الغيب فلا يحرمني إياها.

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها. اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً. ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم.

رسالة مفتوحة

كلمة قبل أن نبدأ، من أخيك

م

يا أخي، قبل أن تقرأ أول سطر: هذه رواية، شخصياتها من خيالي، لكن ما بين سطورها من آيات وأحاديث وأقوال وكتب هو مما يعرفه المسلمون ويتداولونه، وسأذكر لك مصدر كل شيء بجواره، وحيث يختلف العلماء سأقول لك صراحة إنهم اختلفوا. ولست شيخاً ولا مفتياً، وما أكتبه ليس فتوى، فإن كان بين يديك سؤال في حلال أو حرام فاسأل أهل العلم الموثوقين.

وموضوع الكتاب **التزكية**: أن يجاهد الإنسان نفسه ليصفو قلبه ويحسن عمله، وهي معنى قوله تعالى في سورة الشمس: «قد أفلح من زكاها». وقد سمّى كثير من أهل العلم هذا الباب **التصوف**، وأنكر آخرون بعض ما نُسب إليه من ممارسات، وأقرّ كثير منهم بأصل التزكية وبصدق جماعة من أهلها. وسأعرض لك من هذا الباب ما اتفقت عليه كتب الأقدمين الكبار، وأنبّه إلى مواضع الاعتراض، فلا أمدح بلا دليل ولا أذم بلا دليل.

وستجد فيه، كما في كتابي السابق، **عيناً** ترى التفاصيل و**عقلاً** يحلل. فرتّبته في سبعة أجزاء: **اليقظة**، فـ**الطريق**، فـ**الأثر**، ثم **القلب الحاضر**، فـ**التسليم**، فـ**المودة في القربى** (آل البيت)، فـ**القرب**. وفي كل جزء مطلع يصوّر المكان والناس، وفي آخره ميزان يحلل الفكرة، وبينهما الفصول.

اشرب شايك، وتعال.

الجزء الأول

١ اليقظة

قبل الفجر بساعة، كانت الإسكندرية ما تزال تغتسل بالظلمة. البحر عند الأنفوشي يتنفس بصوت منتظم كنائم كبير، والموج يضرب الصخور ثم ينسحب تاركاً رغوة بيضاء تتلاشى كأنفاس. رائحة الملح والسمك المثلّج وخشب القوارب الرطب تعلو على كل رائحة، وفي المرسى أضواء صغيرة تهتز على الماء، ومراكب الصيد متراصّة كأكتاف رجال متعبين.

في الزقاق الضيق المؤدي إلى الجامع، قطّ يلعق كفه على عتبة محل مغلق، وعربة فول تتأهب وفي قِدرها بخار يتصاعد بحذر، ورجل عجوز يجرّ سلة خبز على كتفه ويتمتم بكلمات لا تُسمع. وفوق الأسطح، القباب والمآذن الباهتة تتلألأ كأنها تتذكر شيئاً قديماً.

ثم يرتفع صوت الأذان. لا يرتفع دفعة واحدة، بل ينبت: صوت من مئذنة، فآخر من بعيد، فثالث يلحق به، حتى يصير الفضاء كله نداءً واحداً يتموّج فوق الماء.

وفي هذه الساعة بالذات، يمرّ بين الجالسين على الأرصفة والنائمين في السيارات والمتأخرين عن ليلهم، رجل لا ينام، يحمل في يده هاتفاً ما زال مضاءً، وفي صدره فراغ لا يعرف اسمه. ولو سألته: ماذا تريد؟ لما عرف الجواب.

المقام الأول

01

الفجر الذي لا يشبه الفجر

كان **هاشم** في السادسة والثلاثين، مهندساً في شركة لوجستيات في ميناء الإسكندرية، ولم يذق نوماً حقيقياً منذ شهور. يستلقي على السرير والهاتف على صدره، يقلّب الشاشة بإبهام آلي، فيرى وجوهاً وأخباراً وإعلانات وضحكات ملفقة، ثم يرفع عينيه فيجد السقف كما هو، والفراغ كما هو.

في تلك الليلة، حين دقت الساعة الرابعة والنصف، ارتدى معطفه وخرج دون هدف. مشى على الكورنيش بلا وجهة، والريح تلسع وجهه برذاذ ملح، والمصابيح الصفراء ترتجف على الأسفلت المبلل. ثم سمع الأذان، فوجد قدميه تقودانه إلى مسجد أبي العباس المرسي، كأنهما تعرفان الطريق أكثر منه.

دخل. في الداخل هواء دافئ بنكهة البخور القديم والسجاد، وأعمدة رخامية تصعد إلى قبة مزخرفة بألوان باهتة، ومصابيح نحاسية تتدلى كأنها تنتظر. صفّ هاشم قدميه في آخر الصف، فرأى إلى يمينه رجلاً سبعينياً نحيلاً، بجلباب أبيض باهت وقلنسوة قديمة، يصلي ببطء غريب. لم يكن يصلي كمن يؤدي واجباً، بل كمن يُصغي.

بعد الصلاة، جلس هاشم على عتبة قرب الباب يحدّق في نعليه. سمع خطوات خفيفة، وجلس إلى جواره الرجل نفسه. قال بصوت هادئ دون أن ينظر إليه: «الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر.»

انتفض هاشم: «معذرة؟»

ابتسم الرجل: «رأيتك واقفاً تتحرك كمن يحاول أن يتذكر شيئاً ولا يتذكر. وأكثر الناس لا يلاحظون أنهم غافلون. أنت لاحظت، وهذه أول الطريق.»

سأله هاشم: «ومن أنت؟»

«سالم. كنت صياداً أربعين سنة. لست شيخاً ولا أحب أن يناديني أحد شيخاً. قل لي: عم سالم.»

الدرس الأول: اليقظة

قال عم سالم: «علماء السلوك يضعون لهذا الطريق منازل. ومن أشهر من رتّبها **أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري الهروي** (القرن الخامس الهجري) في كتابه *منازل السائرين*، فجعل أولها **اليقظة**: أن تنتبه من نوم الغفلة، وتدرك أنك مسافر وأن لك وجهة. ثم شرح الكتاب **ابن القيم** في *مدارج السالكين*، مع نقد لبعض ما رآه فيه مخالفاً.»

ثم أضاف: «واليقظة ليست شعوراً جميلاً، بل **قرار**. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (رواه البخاري). فمن عرف أنه عابر سبيل بدأ يسأل: إلى أين؟»

نظر هاشم إلى الأرض: «أنا لا أشعر بشيء في الصلاة يا عم سالم. أقف وأركع وعقلي في الأرقام والرسائل.»

قال عم سالم: «ولماذا جئتَ الليلة إذاً؟»

صمت هاشم. ثم قال: «لا أعرف. كأني ضجرت من الضجيج.»

ضحك عم سالم ضحكة قصيرة: «هذا ما أقوله. هذه ليست ضجراً. هذه **دعوة**. وقد قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (العنكبوت 69). فاجعل الليلة بداية جهاد صغير: لا أكثر من خمس دقائق بعد كل صلاة تجلس فيها بلا هاتف، وتسأل نفسك: أين أنا؟»

ما الذي يوقظ القلب؟

في تلك الليلة لم يستطع هاشم أن يمحو من رأسه كلمة «يقظة». ففي الصباح التالي جلس بعد الفجر خمس دقائق بلا هاتف، فرأى أن الصمت ليس فراغاً بل ازدحاماً: أصوات مهملة تصعد من الداخل كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة.

سأل عم سالم في الجمعة التالية: «وما الذي يوقظ القلب أكثر من غيره؟»

قال: «ذكر العلماء ثلاثة أبواب. الأول **ذكر الموت**، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أكثروا ذكر هادم اللذات» يعني الموت (رواه الترمذي والنسائي). والثاني **الوقت**، فقد قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل

هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» (رواه الحاكم وصححه بعض أهل الحديث). والثالث **القرآن**، فمن قرأه بتأمل أحس أنه يُخاطَب هو، لا غيره.»

ثم أضاف: «واجعل لك يقظات ثلاثاً في اليوم: عند الاستيقاظ تقول: الحمد لله الذي أحياني. وعند منتصف النهار تسأل: هل ما أنا فيه هو ما خُلقت له؟ وعند النوم تقول: اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها.»

توسعة شرعية: القيام لله

بدأ أبو إسماعيل الأنصاري كتابه *منازل السائرين* بباب اليقظة، وافتتحه بقول الله تعالى: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» (سبأ 46). فاليقظة عنده **قيام لله**، أي قرار بالانتقال من حال إلى حال، يتبعه **تفكّر**.

ومن الآيات التي تُذكر في هذا الباب قوله تعالى: «ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق» (الحديد 16). وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين». أي أن الله يعاتب المؤمنين عتاب الحبيب حين يغفلون. ويُروى في كتب التراجم والرقائق أن **الفضيل بن عياض** تاب بعد أن سمع هذه الآية، وفي ثبوت تفاصيل الرواية كلام، فراجعها في مظانها.

خلاصة فقهية: اليقظة ليست عبادة مستقلة لها حكم تكليفي، لكنها **مقدمة** لكل واجب: فمن لم يستيقظ لم يتب ولم يصلِّ بحضور ولم يحاسب. ومن ضيّع اليقظة ضيّع ما بعدها.

تنبيه: «القيام لله مثنى وفرادى» معناه عند المفسرين، كما في تفسير ابن كثير، أن تقوموا مخلصين لله، مجتمعين ومنفردين، تنظرون في أمر الرسالة بإنصاف.

وصية العابد

اليقظة قرار لا شعور. حين تلحظ غفلتك فقد بدأت الطريق، فاجعل لها وقتاً صغيراً ثابتاً كل يوم.

المقام الثاني

02 دفتر الحساب

أعطاه عم سالم يوم الجمعة دفتراً صغيراً بغلاف أخضر، وقلماً رصاصاً مبرياً بسكين. كانا يجلسان على الصخور عند المرسى، والشمس تميل، والصيادون يصلحون الشباك بأصابع تعرف عقدتها من غير نظر. رائحة الحبال المبللة والدخان تتصاعد، وقوارب تتمايل على الماء الرمادي.

قال عم سالم: «اكتب كل ليلة قبل النوم. ثلاثة أسئلة فقط.»

الدرس الثاني: المحاسبة

قال عم سالم: «يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا**. وقد اشتهر **الحارث المحاسبي** (القرن الثالث الهجري) بهذا الباب حتى لُقّب به، وله كتاب *الرعاية لحقوق الله*. وجعل **الغزالي** في *إحياء علوم الدين* كتاباً كاملاً للمحاسبة والمراقبة، ورتّب فيه ما يشبه برنامجاً: أن تضع لنفسك شرطاً في أول يومك، ثم تراقب نفسك في النهار، ثم تحاسبها في المساء، فإن قصّرت لمتها لوماً رفيقاً وأعدت.»

وأعطاه الأسئلة:

1. **ما الذي أدّيته لله اليوم؟** صلاتي، وأين كان قلبي فيها؟
2. **ما الذي أدّيته لخلقه؟** أهلي، وعملي، وكلمتي. هل ظلمت أحداً بكلمة أو وقت؟
3. **ما الذي أخذته من نفسي أكثر من حقها؟** نوماً مفرطاً، أو شاشة، أو غضباً.

ثم قال بجدية رقيقة: «وانتبه: المحاسبة غايتها **الإصلاح** لا **التعذيب**. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يسّروا ولا تعسّروا» (متفق عليه). فمن جعل محاسبته جلداً للنفس قتل رغبته في الطريق. اكتب، ثم قل: يا رب، هذا ما كان، فأعنّي على غد.»

في أول ليلة كتب هاشم ثلاثة أسطر فقط، وكلها أسئلة بلا جواب. وفي الليلة الخامسة وجد أنه يتذكر وجوهاً لم يلتفت إليها طوال النهار. وفي الليلة العاشرة وقف عند السؤال الثالث ولم يكتب شيئاً، لأن الإجابة كانت واضحة جداً، وكانت: هاتفه.

المحاسبة كما رتّبها الغزالي

وحين رأى عم سالم أن هاشماً صار يكتب دفتره بانتظام، قال له: «سأريك ما رتّبه الغزالي في *الإحياء*، فهو أوسع من الأسئلة الثلاثة. جعل المحاسبة ست خطوات متتابعة:»

1. **المشارطة:** في أول اليوم تشترط على نفسك: اليوم لا أغضب، ولا أكذب، ولا أضيّع صلاتي.
2. **المراقبة:** في أثناء اليوم تنتبه إلى نفسك: هل تحققت شروطك؟
3. **المحاسبة:** في آخر اليوم تفتح الدفتر وتنظر.
4. **المعاقبة:** إن قصّرت، تلزمها بعمل صالح يقابل تقصيرها، كصدقة أو ركعتين، لا بالجلد والإيذاء.
5. **المجاهدة:** أن تثبت على الإصلاح ولا تكتفي بالندم.
6. **المعاتبة:** أن تحادث نفسك بلين: ألم تعاهدي؟ فما الذي جرى؟

وأضاف: «وفي دفترك، اكتب سطراً أخيراً لا تنساه: **ما الذي سأفعله غداً فعلاً واحداً مختلفاً؟** فمن أصلح خطوة واحدة كل يوم بلغ في السنة ثلاثمئة وخمسين خطوة.»

توسعة شرعية: النفس اللوامة والمحاسبة

دلّ القرآن على أصل المحاسبة في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد» (الحشر 18)، وأقسم الله بـ«النفس اللوامة» (القيامة 2). وفسّرها كثير من السلف بأنها النفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير، كما نقل الحسن البصري، رحمه الله، في ما يُروى عنه.

وفي الحديث، رواه الترمذي وضعّفه جماعة من المحدّثين: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني». ومعناه صحيح مشهور عند أهل العلم وإن ضعف إسناده، فراجع تخريجه.

وذكر العلماء، ومنهم ابن القيم، أن المحاسبة نوعان: **قبل العمل**، بأن يقف الإنسان عند أول همّه فلا يعمل حتى يتبين له أن العمل خير من تركه. و**بعد العمل**، بأن يحاسب نفسه على طاعة قصّر فيها، أو معصية ارتكبها، أو مباح كان الأولى تركه. ولا يُراد بالنوع الثاني الوسواس.

قاعدة: المحاسبة تتناول **الواجبات** أولاً (هل صليت بوقتها؟ هل أديت الحقوق؟)، ثم **المحرمات** (هل زللت؟)، ثم **النوافل**. ومن اشتغل بالنوافل وضيّع الفرائض فقد أخطأ الترتيب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه» (رواه البخاري).

وصية العابد

ثلاثة أسئلة كل ليلة: ماذا لله؟ ماذا لخلقه؟ ماذا أخذت من نفسي أكثر من حقها؟ ثم أصلح برفق، ولا تجلد.

المقام الثالث

03 باب التوبة

عاد هاشم إلى عم سالم بعد أسبوعين وهو مطأطئ الرأس. جلسا على الدرج الحجري المطل على البحر، والموج يضرب الأرصفة بتثاقل. رائحة الطحالب والخبز الساخن من فرن قريب، وصوت بائع كعك بعيد يتكرر.

قال هاشم: «عدتُ إلى ما كنت عليه. ظننت أني تغيرت، لكنني سهرت ليلتين على الهاتف. لا فائدة.»

صمت عم سالم طويلاً، ثم قال: «لماذا تقول لا فائدة؟»

الدرس الثالث: التوبة والرجاء

قال عم سالم: «لأنك تظن أن الطريق خط مستقيم لا انتكاس فيه. وهو ليس كذلك. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون» (رواه الترمذي وابن ماجه وحسّنه بعض أهل الحديث). ويقول الله تعالى: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» (الزمر 53).»

ثم قال: «وذكر العلماء، كالنووي في *رياض الصالحين*، شروط التوبة: **الإقلاع** عن المعصية، و**الندم** عليها، و**العزم** ألا يعود، وإن كانت تتعلق بحق إنسان فيُرَدّ إليه حقه. ومن قال لنفسه: لا فائدة، فقد أضاف إلى معصيته معصية

أخطر منها: القنوط.»

وأضاف: «وتعلّم ما يسمّيه أهل السلوك **الخوف والرجاء**. هما كجناحي الطائر: إن اختل أحدهما سقط. من غلب عليه الخوف يئس، ومن غلب عليه الرجاء أمن واتّكل. وفي الحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري، وهو من أبناء هذه المدينة (القرن الثامن الهجري)، قوله: «من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل». أي أن من تعلّق بعمله وحده يضعف رجاؤه حين يزلّ، أما من تعلق برحمة الله فلا يكسره الزلل.»

ثم قال بحنان: «قم الآن، توضأ، وصلِّ ركعتين، وقل: يا رب، عدتُ. وغداً أمسك الدفتر.»

قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين

وفي تلك الليلة حكى عم سالم لهاشم قصة وردت في الصحيحين، رواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه وقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال الراهب: لا. فقتله وأكمل به المئة. ثم سأل مرة أخرى، فدُلّ على عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: «نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.» فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت.

قال عم سالم: «انظر يا هاشم: التوبة مفتوحة لمن بدأ الطريق، حتى لو لم يصل. وفي القصة درسان: الأول **ألا تقنّط الناس**، فالراهب الذي أغلق الباب أخطأ. والثاني **أن تغيّر البيئة**: أرض السوء تعيدك إلى الذنب، وأرض الصالحين تعينك. فإن كان ذنبك يقترن بمكان أو صحبة أو جهاز، فتب وغيّر ما حولك.»

وأضاف حكمة ابن عطاء الله: «ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول». أي أن من ذنب انكسر قلبه ورجع قد يكون أقرب ممن اعتز بطاعته.

توسعة شرعية: التوبة النصوح وسيد الاستغفار

قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً» (التحريم 8)، وقال: «وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (النور 31). وفسّر العلماء التوبة النصوح بأنها الصادقة التي لا رجوع بعدها بالنية، وهي مجموع الشروط التي ذكرناها.

وفي الصحيحين حديث يردّ على من يظن أن العائد إلى الذنب لا توبة له: أن عبداً أذنب فقال: ربّ أذنبت فاغفر لي. فقال الله: «علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي». ثم أذنب مرة أخرى وتاب، فقال الله مثل ذلك، ثم أذنب الثالثة فتاب، فقال: «اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك». ومعناه، كما قال أهل العلم، ما دام يتوب كل مرة توبة صادقة.

وروى مسلم أن الله «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». وروى البخاري **سيد الاستغفار**: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». ومن قاله موقناً به نهاراً فمات قبل أن يمسي، أو ليلاً فمات قبل أن يصبح، دخل الجنة.

تنبيه فقهي: التوبة تُقبل ما لم يُغرغر العبد (حديث الترمذي وحسّنه الألباني)، ولا تُقبل إذا طلعت الشمس من مغربها. فلا تسوّف.

وصية العابد

لا تقل «لا فائدة». كل سقوط يمكن أن يصير بداية. تُب: أقلع، وندم، واعزم، وارجع بلا قنوط.



ميزان الجزء الأول

في الغفلة واليقظة

لا يعرف أكثر الناس الغفلة، لأن الغفلة بطبيعتها لا تُرى من داخلها. فكما أن النائم لا يعلم أنه نائم، فالغافل لا يعلم أنه غافل، ولا تبدأ يقظته إلا حين يمرّ بما يوقظه: صدمة، أو سؤال، أو وجه عجوز في الفجر.

وقد قام هذا الجزء على ثلاث درجات متتابعة. **الدرجة الأولى: اليقظة**، وهي إدراك النقص. **الدرجة الثانية: المحاسبة**، وهي تحويل الإدراك إلى سجل: فالشعور وحده يتبخر، والمكتوب يبقى. **الدرجة الثالثة: التوبة**، وهي ألا يتحول السجل إلى سجن، وأن يبقى في النفس مكان للرجاء.

وفي هذا الترتيب حكمة. فمن بدأ بالتوبة قبل اليقظة تاب عمّا لا يرى. ومن بدأ بالمحاسبة قبل الرجاء انهار تحت ثقل السجل. والعارفون بالنفس يعلمون أن **اللوم المسرف** ليس زهداً، بل كبر مقلوب: فمن يعاقب نفسه بقسوة يظن أنه كان يجب أن يكون كاملاً.

وخلاصة هذا الجزء: **اليقظة ميلاد، والمحاسبة تربية، والرجاء هواء، ومن فقد واحداً اختنق.**

الجزء الثاني

٢ الطريق

الظهيرة عند قلعة قايتباي. الشمس تضرب الحجارة الصفراء فتلمع كأنها تصهر الحجر، والبحر خلف السور أزرق قاسٍ تتناثر عليه نقط الزبد. على الصخور المسطحة عند قدم القلعة صبية يغطسون ويقفزون وأجسادهم تلمع، وعلى الرصيف باعة ترمس وذرة وأكواب عصير بخار الثلج يتصاعد منها، وسياح يلتقطون الصور بإيماءات متعجلة.

في الطرف البعيد من الميناء، تحت ظل جدار قديم، رجل جالس يمسك خيطاً من الخرز بين أصابعه، ويحرك شفتيه بلا صوت. لا أحد ينظر إليه. وعلى بعد خطوات منه شاب يتحدث في الهاتف بصوت عالٍ، وآخر يصرخ على صاحبه، وسيارة تطلق بوقها بلا سبب.

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للطريق أدوات وأدباً: أن يذكر الله دون أن يصير الذكر عادة بلا روح، وأن يعرف متى يحتاج دليلاً وكيف يعرف الدليل الصحيح من المدّعي، وأن تتحول صلاته من حركات إلى حضور.

المقام الرابع

04

ورد الصباح

قال عم سالم وهما يمشيان على الكورنيش في الصباح الباكر: «ستحتاج إلى **ورد**. شيء قليل ثابت، لا كثير متقطع.»

كان الضباب الخفيف يرتفع من البحر، وأضواء السفن البعيدة تبدو كنجوم تعثرت. وعلى الرصيف رجل يغسل زجاج محله بالماء وقطعة قماش، وصبي يوزّع الجرائد على الأكشاك، وكل شيء يتحرك كأنه يستعد.

الدرس الرابع: الذكر

قال عم سالم: «الذكر من أعظم أبواب هذا الطريق. قال الله تعالى: «فاذكروني أذكركم» (البقرة 152)، وقال: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد 28). وروى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبق المفرّدون»، قالوا: وما المفرّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». وفي الحديث القدسي المتفق عليه: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني».»

ثم قال: «وجعل أهل الطرق لكل سالك **ورداً** يومياً من الأذكار. وأبسطه ما ورد في السنة: الاستغفار، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخاري)، والصلاة عليه،

فمن صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشراً (رواه مسلم)، وكلمة التوحيد.»

وأعطاه ورداً بسيطاً بعد الفجر: **مئة** استغفار، و**مئة** صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، و**مئة** «لا إله إلا الله». وقال: «والعدد ليس سحراً. المهم **الحضور**: أن تعرف ما تقول. مئة مرة بقلب غافل أقل من عشر بقلب حاضر. وإن عجزت فاجعل عدداً أقل يناسب طاقتك، ولا تُتعب نفسك بأكثر مما تحتمل.»

وأضاف تحذيراً: «والذكر لا يغني عن الفرائض. فمن ترك الصلاة وذكر الله بالتسبيح فقد قلب الميزان. وقد قال العلماء: خير الأمور أوسطها.»

أذكار قليلة وكيف تثبت

أعطى عم سالم هاشماً هذه الخطة التي تبدأ بها أسبوعك:

- **بعد الفجر:** ورده الذي تعلّمه، ثم أذكار الصباح المأثورة كما تتيسر.
- **في الطريق إلى العمل:** كلمتان فقط: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن» (متفق عليه).
- **عند الغضب:** الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، كما ورد في الصحيحين.

- **قبل النوم:** أذكار النوم المأثورة، وقراءة آية الكرسي.

ثم قال: «وفي القرآن: «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً» (الكهف 46). وفسّرها كثيرون بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل شكا إليه كثرة الشرائع: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» (رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث).»

وأوصاه بما سماه **حفظ الورد**: أن يربط الذكر بعادة ثابتة، كشرب الشاي أو لبس الحذاء، فمن ربط عادة جديدة بعادة قديمة ثبتت. وإذا فاته ورده قضاه حين يتذكر، ولا يجعل الفوات سبباً للترك.

توسعة شرعية: ضوابط الذكر

الجهر والإسرار: قال الله تعالى: «واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال» (الأعراف 205). وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فالأمر فيه سعة، والأصل ألا تؤذي من حولك.

الذكر الجماعي: روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما جلس قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده». وقد اختلف العلماء في صور الذكر الجماعي: منهم من أجاز مجالس الذكر ما التزمت بالمأثور وخلت من الأمور المحدثة، ومنهم من كره التزام هيئة معينة. وفي سنن الدارمي أن عبد الله بن مسعود رضي

الله عنه أنكر على قوم يعدّون التسبيح بالحصى في حلقة وأمرهم أن يعدوا سيئاتهم، وصحّح الألباني إسناد هذا الأثر. وقد فهمه بعض العلماء إنكاراً على التزام هيئة غير مأثورة، لا على الذكر نفسه.

أفضل الذكر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» (رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث).

قاعدة: ابدأ بالأذكار المأثورة في الصحيحين، ثم أتقنها، ثم لا تلتزم ما لم يرد إلا بإخلاص وتحرٍّ، واستشر أهل العلم في ما اختلفوا فيه.

وصية العابد

وردٌ قليل ثابت بقلب حاضر خير من كثير متقطع بقلب غافل. ولا يغني الذكر عن الفرائض.

المقام الخامس

05

الرجل الذي يحتاج إلى دليل

سأل هاشم عم سالم ذات مساء وهما في المقهى الصغير المطل على الميناء: «سمعت الناس يتحدثون عن **الطرق** وعن **الشيخ**. هل أحتاج أن أنتمي إلى طريقة؟ وما هذه الطرق؟»

وضع عم سالم كوب الشاي ببطء. كان المقهى مضاءً بمصباح أصفر واحد، وبخار الشاي يلتف حول وجهه المجعد، وحوله أصوات النرد على الطاولات ودخان الشيشة.

الدرس الخامس: الصحبة والضوابط

قال عم سالم: «سأحكي لك ما أعلم وأنا أخطئ وأصيب. فكرة **الصحبة** قديمة في هذا الباب: أن يتعلم السالك من إنسان سبقه ويثق بعلمه وصدقه. ومن أقدم من تحدث في الأحوال والمقامات في مصر **ذو النون المصري** (القرن الثالث الهجري) من أخميم. وفي القرن السابع الهجري ظهر في مصر **أبو الحسن الشاذلي** (توفي في الصحراء الشرقية وهو في طريقه إلى الحج)، وتلميذه **أبو العباس المرسي** الذي دُفن في مسجده هذا الذي صلّيت فيه، وتلميذه **ابن عطاء الله السكندري** صاحب الحِكَم.»

ثم أضاف: «ومن أشهر الطرق في مصر وغيرها: **الشاذلية**، و**الأحمدية البدوية** نسبة إلى أحمد البدوي في طنطا، و**البرهانية الدسوقية** نسبة إلى إبراهيم الدسوقي في دسوق، و**الرفاعية** نسبة إلى أحمد الرفاعي، و**القادرية** نسبة إلى عبد القادر الجيلاني، و**النقشبندية**. وتُنظَّم هذه الطرق في مصر عن طريق جهة رسمية هي المجلس الأعلى للطرق الصوفية.»

نظر هاشم إليه: «وهل كلها صحيحة؟»

قال عم سالم: «هنا أحذرك. اختلف العلماء. منهم من عدّ هذه الطرق وسائل لتزكية النفس ما التزمت بالكتاب والسنة، ومنهم من أنكر بعض ما نُسب إليها من أمور رأوها بدعة. وقد انتقد ابن تيمية وابن القيم بعض ممارساتها في مواضع من كتبهما، وفي الوقت نفسه ذكرا أن في المنتسبين إلى هذا الباب صادقين مجتهدين. فلا تحكم عليها بكلمة واحدة، ولا تدخلها بلا علم.»

ثم قدّم له ما يُنسب إلى **الجنيد البغدادي** من قوله: «علمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة.» وقال: «فهذا هو الميزان. فإن عرض عليك أحد شيئاً يخالف الكتاب والسنة فاتركه، ولو كان في ثياب بيضاء ولحية مهيبة.»

خمس علامات لمن تأتمنه على قلبك

1. **علم بالشرع:** يعرف الحلال والحرام ولا يتجاوزهما.
2. **عمل به:** يرى الناس صلاته وصدقه وخلقه قبل كلامه.
3. **تعفّف عن مال الناس:** لا يطلب منك مالاً بغير حق ولا يجعل الطريق تجارة.

4. **رحمة بالخلق:** لا يتكبر، ولا يزدري أحداً، ولا يفرّق بين غني وفقير.

5. **خلو من الغلو والدعاوى:** لا يدّعي العصمة، ولا يأمرك بما يخالف الشرع، ولا يقطعك عن أهلك وعملك.

وأضاف: «وفي الحِكَم: «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». فأول ما تحتاجه دليل داخلي نظيف قبل أي شيخ.»

الغزالي في أزمته

وفي ذلك المساء حكى عم سالم لهاشم عن رجل من أعظم علماء الإسلام، هو **أبو حامد الغزالي**، الذي كان في قمة منصبه أستاذاً في المدرسة النظامية ببغداد، ثم أصابته في سنة 488 هـ، كما يروي في كتابه *المنقذ من الضلال*، أزمة شك وانقطاع عن التدريس، حتى ترك بغداد وسافر زمناً طويلاً. ويذكر في كتابه أنه رأى أن أهل التصوف هم أصحاب الذوق والعمل، وأن العلم النظري وحده لا يشفي.

قال عم سالم: «ولا أقول لك إن كل ما قاله أو فعله صواب، فقد نقده علماء كثيرون. لكن في قصته درساً: أن المعرفة بلا عمل تتحول إلى حِمل، وأن العالِم قد يحتاج إلى صحبة تنقله من العلم إلى الحال.»

ثم قال: «ولمن لا يستطيع الانتماء إلى طريقة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» (رواه أبو داود والترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث). فاجعل لك **صحبة** ولو بسيطة: صديقين

تقرأان معهما صفحة من *رياض الصالحين* كل أسبوع، وتتذاكران ما عملتما. فتلك صحبة صالحة بلا اسم طريقة.»

توسعة شرعية: الجليس الصالح

قال الله تعالى: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» (الكهف 28)، وقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة 119). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير: فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» (متفق عليه).

ويُنقل عن **الإمام الشافعي** رحمه الله ما معناه أنه صحب الصوفية فلم ينتفع منهم إلا بحرفين، أحدهما أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، والثاني أن النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وهذا مشهور في كتب الرقائق، وفي إسناده كلام، فراجعه. والمقصود أن علماء السنة الكبار لم يحتقروا باب التزكية.

الفقه في الصحبة: يرى كثير من العلماء أن الحاجة إلى مرشد **تتفاوت**: فمن كان عالماً بالشرع ثابت القدم قد يكتفي بصحبة عامة أهل الخير، ومن كان مبتدئاً احتاج إلى من يدله. وليست الصحبة بيعة ملزمة شرعاً، فلا يلزم أحداً أن يبايع شيخاً. وإنما الواجب اتباع الكتاب والسنة، والصحبة وسيلة.

من علامات الصحبة النافعة: أنك تخرج منها أقرب إلى الله وإلى أهلك وعملك، لا أبعد.

وصية العابد

اطلب الصحبة الصادقة، لكن ضع الكتاب والسنة ميزاناً فوق كل شيخ، ولا تسلّم قلبك لمن لا تعرف علمه وعمله وخلقه.

المقام السادس

06

صلاة لا يُسمع فيها إلا القلب

أخذه عم سالم قبل الفجر إلى المسجد وهو ما يزال شبه مظلم، وأضاءت المصابيح النحاسية واحداً بعد واحد. بدأ المصلون يتوافدون بخطى لا تُسمع: صياد يحمل رائحة البحر في ثيابه، وعامل نظافة يمسح عن يديه الماء، وفتى نحيل بعينين نصف نائمتين.

صلّى الإمام بصوت خافت، وكانت السجادة تحت قدمي هاشم ناعمة من كثرة السجود عليها. لأول مرة لاحظ أن الأعمدة الرخامية تعكس ضوء المصابيح كأنها ماء ساكن.

الدرس السادس: الخشوع

بعد الصلاة قال عم سالم: «قال الله تعالى: «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» (المؤمنون 1 و2). وفي حديث جبريل الطويل الذي رواه مسلم سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن **الإحسان**، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا أصل كل ما يتكلم فيه أهل التزكية.»

وأضاف: «وقال ابن عطاء الله: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (رواه مسلم). فالصلاة جسد وروح: الجسد حركاتها، والروح حضورك فيها.»

ثم أعطى هاشم أربع خطوات للصلاة:

1. **قبل أن تكبّر:** توقف ثلاث ثوانٍ، واسأل: بين يدي من أقف؟
2. **اعرف معنى ما تقول:** اقرأ معنى الفاتحة بالعربية الفصيحة مرة في الأسبوع.
3. **بطّئ:** اجعل ركوعك وسجودك أطول بقليل مما اعتدت.
4. **حين يشرد قلبك فلا تيأس:** أعده بلطف، كما تعيد طفلاً شارداً إلى يدك.

قال هاشم: «ولكن قلبي يشرد في كل ركعة.»

ابتسم عم سالم: «وأنا بعد أربعين سنة يشرد قلبي. لكن الفرق أنني صرت أعيده سريعاً. الخشوع ليس أن لا تشرد، بل أن **تعود**.»

الذي أساء صلاته

ثم روى عم سالم لهاشم حديث **المسيء صلاته**، وهو في الصحيحين: دخل رجل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فصلى ثم جاء فسلّم، فقال له: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ». فصلى ثم جاء، فقال: «ارجع فصلِّ فإنك لم

تصلِّ». حتى كانت الثالثة، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلّمني. فعلّمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يطمئن في كل ركن.

قال عم سالم: «وهذا يعلّمنا أن الخشوع يبدأ بـ**الطمأنينة**: أن يستقر كل عضو في موضعه قبل أن ينتقل. ومن عجّل حتى لا يذكر ما قرأ فقد فاته أول الباب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها» (رواه أبو داود وصححه بعض أهل الحديث). فجعل الصلاة راحة لا عبئاً.»

وقدّم له تمريناً: «صلِّ هذا الأسبوع ركعتين بطيئتين في مكان هادئ، في الضحى، بعد أن تقرأ معنى الفاتحة. لا تعجل. اجعل للركوع زمناً تقول فيه التسبيح بمعناه، وللسجود زمناً تدعو فيه. ثم قارن بين هذه الصلاة وصلاتك المعتادة، واسأل نفسك: ما الذي تغير؟»

توسعة شرعية: حكم الخشوع

قال الله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (البقرة 45)، أي أن الصلاة شاقة على النفس إلا على من خشع قلبه.

وروى أبو داود، وحسّنه بعض أهل الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد لينصرف من صلاته وما كُتب له إلا عُشرها، تُسعها، ثمنها، سُبعها، سُدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها». أي أن الأجر على قدر الحضور.

حكم الخشوع عند الفقهاء: اختلفوا فيه. فجمهورهم على أن الصلاة **صحيحة** وتبرأ بها الذمة وإن شرد القلب، لكن الأجر الكامل لا يكون إلا مع الحضور. ويميل الغزالي في *الإحياء* إلى عدّ حضور القلب شرطاً في **القبول**

التام وإن لم يكن شرطاً في الصحة. وذهب بعض العلماء إلى وجوبه لظاهر الآية. فلا تترك الصلاة لأن قلبك شارد، ولا تستهن بشرود القلب.

ما يعين على الخشوع شرعاً: الوضوء الكامل، والسواك، والمبادرة إلى أول الوقت، وعدم الصلاة بحضرة طعام يشتهيه (لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان»، رواه مسلم)، واختيار موضع هادئ، وعدم الالتفات، وإدراك أن «المصلي يناجي ربه» (رواه البخاري).

وصية العابد

الخشوع ليس ألا يشرد القلب، بل أن تعيده كلما شرد. قِف بين يدي الله كأنك تراه، ولا تيأس من شرودك.



ميزان الجزء الثاني

في الذكر والصحبة والخشوع

للطريق في هذا الجزء ثلاثة أركان، ولكل ركن خطر يضاده. **الركن الأول: الذكر**، وخطره **العادة**: أن يصير الذكر حركة لسان بلا حضور، فيُفقد لبّه. **الركن الثاني: الصحبة**، وخطره **التقليد**: أن يسلّم السالك عقله لغيره، فيفقد ميزانه. **الركن الثالث: الخشوع**، وخطره **الزهو**: أن يظن الخاشع أنه صار خاشعاً، فيفسد ما ظن أنه صلح.

وقد جاء الميزان عند عم سالم في ثلاثة أقوال. فالذكر عنده **قليل ثابت حاضر**، لا كثير متقطع غافل. والصحبة عنده **مشروطة بالكتاب والسنة**، فلا يعلو شيخ على النص. والخشوع عنده **عودة**، لا كمال. وهذه الأقوال الثلاثة تنتهي إلى حقيقة واحدة: أن **الدين لا يُلقى جاهزاً في القلب، بل يُبنى فيه بنياناً بطيئاً.**

وفي مسألة الطرق ظهرت الأمانة العلمية: فإن العاقل لا يحكم على جماعة كبيرة من الناس، عبر قرون وبلدان، بكلمة واحدة. فإن في المنتسبين إلى كل مدرسة صادقاً ومبتدعاً ومخلصاً ومدّعياً. والعدل أن تزن كل إنسان بما يقول ويفعل، لا بما ينتسب إليه.

وخلاصة هذا الجزء: **الطريق ثلاث: ذكر حاضر، وصحبة منضبطة، وخشوع عائد. ومن اختلّت له واحدة اضطرب سيره.**

الجزء الثالث

٣ الأثر

الغروب في ميناء الصيد. الشمس تنزل وراء الأفق بلون النحاس المصهور، والبحر يلتقط لونها قطعة قطعة، والسماء تتبدل من البرتقالي إلى الرمادي الداكن. الصيادون يعودون بقواربهم المثقلة، ورائحة السمك الطازج تعلو من الصناديق المرصوصة على الرصيف، وأصوات المساومة تتداخل مع صراخ النوارس.

على حافة المرسى امرأة عجوز تقف بجوار سلة فارغة، تنتظر بقايا الصيد لتبيعها. وبجوارها صبي ينظّف السمك بسكين صدئة، يده تتحرك بسرعة معتادة، ودمه الصغير يلطخ كفه.

وفي طرف المرسى، يقف رجل نحيل بجلباب أبيض، يوزّع رغيفاً من كيس على من حوله، ولا ينظر في وجوههم كي لا يحرجهم.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للطريق ثمرة تظهر في الناس لا في الخلوة: زهد يحرر القلب من التعلق، ورضا يسند الروح تحت الألم، وخدمة تحوّل التزكية إلى نفع.**

المقام السابع

07 اليد الفارغة

قال هاشم لعم سالم وهما يجلسان في بيته البسيط المطل على ورشة القوارب: «لماذا بيتك هكذا؟ أنت لا تملك شيئاً تقريباً.»

كانت الغرفة صغيرة، فيها حصيرة وفراش مطوي وطاولة خشبية عليها كوب وإبريق وكتاب أخضر باهت. على الجدار صورة قديمة لمركب، وفي الزاوية شبكة صيد معلقة كأنها ذكرى.

الدرس السابع: الزهد

قال عم سالم: «ما أفقرني. أنا لا أملك شيئاً، لكن لا أخاف أن أفقد شيئاً. وهذا هو الزهد: ليس ألا تملك، بل ألا يملكك ما تملك. وقد قال الله تعالى: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» (الحديد 23). ولم يكن الأنبياء فقراء كلهم، فسليمان عليه السلام كان ملكاً، لكن قلبه لم يتعلق بالملك.»

وأضاف: «وتعلّمت من ابن عطاء الله حكمة قال فيها: «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه». أي: أن البذرة التي لا تُدفن لا تنبت. فمن أراد ثمرة في دينه فليبتعد عن حب الظهور والتصنع. وهذا عصرك يا هاشم: كل شيء يطلب منك أن تظهر وتُعجب وتُتابَع.»

ثم أعطاه ثلاث تمارين:

1. **صيام الشاشة:** ساعة كاملة كل يوم بلا هاتف، وأسبوعاً بلا تصفح قبل النوم.
2. **صدقة خفية:** تصدق بشيء دون أن يعلم أحد، حتى زوجتك أو أخوك.
3. **حذف حسابين:** أغلق حساباً أو اثنين لا تنفعك فيهما إلا المقارنة.

قال هاشم: «صعب.»

ابتسم عم سالم: «أعلم. ولهذا سمّاه العلماء **مجاهدة**.»

بين الحلال والفضول

قال هاشم: «فإن كان الزهد ألا يملكني ما أملك، فهل أترك عملي وأعيش كما تعيش؟»

ابتسم عم سالم: «لا. ولو أراد الله لك هذا لقلته لك. وقد روى ابن ماجه حديثاً حسّنه النووي في *الأربعين* وضعّفه آخرون: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس». والمعنى أن الزهد في الدنيا هو **ترك التعلق بها**، وفي ما بأيدي الناس هو **ترك الطمع فيه**.»

ثم أضاف: «ويُنسب إلى الإمام أحمد بن حنبل أن الزهد ثلاثة أنواع: ترك الحرام، وهو زهد العوام. وترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. وترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين. فابدأ بالأول، وأتقنه، ثم حاسب نفسك في الثاني: ما الذي أملكه وأستعمله فعلاً، وما الذي يملأ بيتي وقلبي دون حاجة؟»

وأعطاه تمريناً: «افتح خزانتك وأخرج منها ثلاثة أشياء لم تستعملها منذ سنة، وأعطها لمن يحتاجها. ثم اكتب في دفترك: ماذا شعرت؟»

توسعة شرعية: الزهد لا يعني ترك الكسب

يظن بعض الناس أن الزهد ترك العمل والتكسب، وليس كذلك. قال الله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد» (الحديد 20)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (رواه الترمذي وصححه بعض أهل الحديث). لكنه قال أيضاً: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده» (رواه البخاري)، وقال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (رواه أحمد وصححه بعض أهل الحديث).

فالزهد الشرعي يجمع: **كسباً حلالاً** و**قلباً غير متعلق**. وقد كان في الصحابة أغنياء كعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وكانوا زاهدين بقلوبهم. وقال العلماء إن الغنى مع الشكر والإنفاق قد يكون أفضل من الفقر مع الجزع، وإن الفقر مع الصبر قد يكون أفضل من الغنى مع التفريط، والأفضل ما كان أقرب إلى الله بحسب حال كل إنسان.

ضوابط عملية: أدِّ **الزكاة** إن بلغ مالك النصاب (وهي ركن، ومن علامات الزهد أداؤها بطيب نفس)، وتجنب **الإسراف** (قال تعالى: «ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»، الأعراف 31)، وكن **معتدلاً** فلا تحرم نفسك وأهلك حقوقهم بدعوى الزهد.

وصية العابد

الزهد ألا يملكك ما تملك. ادفن ظهورك قليلاً، وتصدّق خفية، وحرّر وقتك من الشاشة.

المقام الثامن

08 البحر لا يعتذر

جاءه الخبر في منتصف النهار، والمكتب يعجّ بالمكالمات: أمه، التي لم يشكُ منها شيئاً قط، نُقلت إلى المستشفى إثر ألم مفاجئ، والأطباء يريدون فحوصاً وانتظاراً. ترك هاشم عمله وركض، والمصعد يسقط به ببطء لا يطاق، والشارع يتعثر تحت قدميه.

في ممر المستشفى الأبيض الطويل، جلس على كرسي بلاستيكي، وساعة الجدار تدق بإصرار، ورائحة المطهر تحتل حلقه. ثم رأى عم سالم قادماً بخطواته الهادئة، يحمل في يده كيس تمر.

الدرس الثامن: الصبر والرضا

جلس عم سالم إلى جواره وقال: «اشرب ماء. ثم اسمع.»

وبعد صمت قال: «أنا فقدتُ ابني الأكبر في البحر، وكان في الخامسة والعشرين. خرج في رحلة صيد ولم يعد. لم أفهم لماذا. لسنين قلت: لماذا؟ ثم تعلمت أن أسأل: **ماذا الآن؟**»

وتلا قول الله تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» (البقرة 155 و156). وقال: «وقال النبي صلى الله عليه

وسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم).»

ثم فرّق بين أمرين: «**الرضا** ليس **الاستسلام**. الرضا أن يطمئن قلبك بقضاء الله، ومع ذلك تأخذ بالأسباب: تسأل الأطباء، وتطلب الدواء، وتكثر الدعاء. والنبي صلى الله عليه وسلم علّمنا أن نأخذ بالأسباب ونتوكل. فلا تترك الطبيب بحجة التسليم.»

وأضاف: «وإن ثقل عليك الحزن حتى لم تعد تنام ولا تأكل، فلا تخجل أن تطلب عوناً من أهلك ومن طبيب نفسي. الدين لا يمنع هذا.»

بكى هاشم لأول مرة منذ سنين. ولم يقل عم سالم شيئاً. وضع يده على كتفه فقط، وجلسا معاً في الممر الأبيض حتى خرج الطبيب وقال: «الحمد لله، الأمر أهون مما ظننا.»

قصة أيوب والدمع المشروع

ولما رآه عم سالم يحاول أن يحبس بكاءه، قال: «لا تحبس. البكاء ليس اعتراضاً.»

ثم روى: «لما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم دمعت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» (رواه البخاري). فالحزن ليس نقصاً في الإيمان.»

وتلا: «وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر» (الأنبياء 83 و84). وقال: «انظر كيف شكا أيوب عليه السلام، لكنه شكا **إلى الله**، لا من الله. فمن بكى بين يدي ربه فقد صبر، ومن شكا الناس من ربه فقد جزع.»

وأضاف حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه» (متفق عليه). وقال: «والمؤمن يخرج من المحنة وقد خفّت ذنوبه، فاصبر، ولا تقل إن الله ظلمك. ومن احتاج في حزنه إلى طبيب أو أخ يسمعه فليذهب إليه.»

توسعة شرعية: الصبر واجب والرضا مستحب

قال الله تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه» (التغابن 11). ونقل المفسرون عن علقمة وابن عباس رضي الله عنهما أن المراد: الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم.

وفي الحديث، رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث: «إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وفي الصحيحين: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

الفرق بين الصبر والرضا: ذكر كثير من العلماء، ومنهم ابن تيمية وغيره، أن **الصبر واجب** على كل مصاب: أن يحبس لسانه عن التسخط، وجوارحه عن النياحة وشق الجيوب. وأما **الرضا** فهو درجة أعلى، ذهب جماعة إلى أنه

مستحب، وهو أن يطمئن القلب بقضاء الله. فمن ضاق صدره وبكى ولم يتسخط فهو صابر، وهو على خير.

ما لا يجوز عند المصيبة: النياحة ولطم الخدود وشق الجيوب (لقوله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»، متفق عليه). **وما يجوز:** البكاء بلا نياحة، والحزن، والحديث إلى المقرّبين، وطلب العلاج والدعاء.

وصية العابد

الرضا طمأنينة القلب مع أخذ الأسباب. اصبر، واسأل الأطباء، وادعُ، ولا تحمل الحزن وحدك.

المقام التاسع

09 آخر الدفتر

مرّت الشهور، وبقي هاشم يأتي إلى المسجد كل فجر. لم يصر وليّاً ولا عابداً بالمعنى الذي كان يتخيله. لكنه صار ينام، ويحافظ على وردٍ قليل، ويكتب دفتره، وبدأ يشعر لأول مرة أن ثمة مكاناً في صدره لم يكن موجوداً.

وفي صباح خريفي، جاء عم سالم إليه في المرسى، ومعه كيس تمر.

الدرس التاسع: النفع والإرث

قال: «يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (رواه أبو داود والترمذي). وروى الطبراني حديثاً ذكره بعض أهل الحديث وحسّنوه: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». فتزكية النفس لا تكتمل بالخلوة. من اعتزل الناس وأحسن عبادته ولم ينفع أحداً فقد أخذ نصف الطريق.»

ثم قال: «سأتوقف عن الحضور إلى المسجد يا هاشم. عمري لم يعد يسمح، وأولادي يريدونني قرب بيتهم في أبي قير. لكن بابي مفتوح لك كل جمعة.»

شعر هاشم أن الأرض مالت. قال: «لا يا عم سالم. أنت لم تعلّمني كل شيء.»

ابتسم عم سالم: «علّمتك ما أعرف. والباقي ستتعلمه أنت. وكل ما فعلته معك فعله بي شخص قبلي. هذه سلسلة صغيرة: كلّ من أخذ يعطي. وهذا قريب مما سمّاه الصوفية **الخرقة**: أن يحمل المرء ما تلقّاه ويسلّمه.»

الماء والرحمة

وفي ذلك الصباح حكى عم سالم لهاشم حديثين في الرحمة. الأول رواه البخاري ومسلم: أن رجلاً رأى كلباً يلهث من العطش، فنزل بئراً وملأ خفّه ماءً وسقاه، «فشكر الله له فغفر له». والثاني: أن امرأة بغيّاً رأت كلباً يطيف ببئر قد كاد يقتله العطش، فنزعت موقها فسقته، فغُفر لها بذلك.

قال عم سالم: «ما أعظم أبواب الرحمة. لم تكن عبادتهما ظاهرة، لكن ما كان في قلبيهما من رقة فتح لهما باب المغفرة. فلا تستصغر أي معروف.»

وأضاف حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه: أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء» (رواه أبو داود وحسّنه بعض أهل الحديث). قال: «ولهذا فاجعل لك صدقة جارية بسيطة: قارورة ماء مبرّدة عند باب المسجد، أو مساهمة شهرية في حفر بئر، أو كسوة لأسرة محتاجة. وإن لم تستطع فكلمة طيبة صدقة.»

توسعة شرعية: نفع الخلق عبادة

قال الله تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى» (المائدة 2)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبّك بين أصابعه (متفق عليه)، وقال: «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته،

ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (متفق عليه).

أنواع الصدقة الجارية: ذكر الفقهاء منها: **الوقف** (كبناء مسجد أو بئر أو مدرسة أو مستشفى)، و**العلم النافع** (تأليف كتاب أو تعليم من يعلّم غيره)، و**الولد الصالح**، و**كل ما استمر نفعه**. وقد دلّ حديث مسلم على أن أعمال العبد تنقطع بموته إلا ثلاثاً. وفسّر العلماء ما يلحق الميت من أعمال الأحياء، كالدعاء والصدقة والحج عنه، وما فيه خلاف كقراءة القرآن له.

فقه الأولويات في النفع: ابدأ بأهلك وأقاربك (قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»، رواه الترمذي والنسائي وحسّنه بعض أهل الحديث)، ثم جيرانك، ثم عامة المسلمين.

قاعدة: النفع لا يشترط له مال: «كل معروف صدقة» (رواه البخاري)، حتى «تبسّمك في وجه أخيك صدقة».

ثم أمسك بيده: «والآن، وعدٌ واحد: في صباح ما، سترى شاباً يقف في آخر الصف، مضيّعاً. اجلس إلى جواره بعد الصلاة. وقل له ما قلته لك.»

ومشى عم سالم في الزقاق الضيق نحو الشاطئ، خفيف الخطى بجلبابه الأبيض الباهت، ولم يلتفت إليه أحد.



ميزان الجزء الثالث

في الغنى الأصيل

يظن أكثر الناس أن الغنى أن تمتلئ اليد، وأن الفقر أن تفرغ. وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوهم بقوله: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس» (متفق عليه). فالغنى حال القلب، لا حجم الخزانة.

وإذا نظرنا إلى هذا الجزء الأخير وجدنا فيه ثلاث ثمرات، ولكل ثمرة تحرير. **الزهد** يحرر القلب من التعلق بما يملك. **الرضا** يحرره من الاعتراض على ما لا يملك. **النفع** يحرره من نفسه، لأن من يخدم غيره يخرج من سجن «أنا». وهذه الثمرات الثلاث هي الوجه الخارجي لما بدأ في الداخل: اليقظة تفتح العين، والطريق يبني الأدوات، والأثر يظهر الثمرة.

ولكل ثمرة آفة تقف بجوارها كظلها. فآفة الزهد **الرياء به**، أن يتفاخر المرء بقلة ما يملك. وآفة الرضا **السلبية**، أن يسمي التقصير تسليماً. وآفة النفع **المنّ**، أن يذكّر من أحسن إليه بإحسانه. ودواء الأولى **الإخفاء**، ودواء الثانية **الأخذ بالأسباب**، ودواء الثالثة **الإخلاص**.

والعابد الذي رأيناه في هذه الصفحات ليس صورة مثالية لا تُنال. هو رجل بسيط يخطئ ويتعب ويفقد ولده، ثم يتعلم أن يسأل: **ماذا الآن؟** وهذه هي الحكمة كلها: أن يظل الإنسان في حركة صغيرة نحو الأحسن، لا يقف عند خطئه، ولا يتكبر بصوابه.

وخلاصة هذا الجزء في سطر: **من أيقظ قلبه، وحاسب نفسه، وذكر ربه، وصحب الصادقين، وزهد وصبر ونفع، فقد ملك أعظم ما يُملك.**

استراحة بين الطريقين: المقام والحال

يا أخي، مررنا حتى الآن بتسعة مقامات: يقظة، ومحاسبة، وتوبة، وذكر، وصحبة، وخشوع، وزهد، ورضا، ونفع. وقبل أن ندخل الأجزاء الثلاثة الباقية، وقفة قصيرة عند تفريق قديم ذكره **القشيري** في *الرسالة*: أن **المقام** ما يتحقق به العبد بجهده وصبره، كالتوبة والصبر والرضا، وأن **الحال** ما يرد على القلب هبةً من غير تكلّف، كالأنس والشوق. فالمقام يُجاهَد فيه، والحال يُشكر عليه ولا يُدّعى.

وما سيأتي أعمق، لا لأن ألفاظه أصعب، بل لأنه يعمل في الباطن حيث لا يراك أحد. فإن سمعت إنساناً يتحدث عن أحواله العالية بلا حياء، فاحذر، فإن أصدق أهل الباطن أخفاهم.

وكما في الأجزاء الأولى: لست مفتياً ولا شيخاً، فإن احتجت حكماً فاسأل أهل العلم، وإن ثقل عليك همّك أو اضطرب نومك وطعامك أسابيع فاسأل طبيباً أو مختصاً نفسياً إلى جانب ما تقرأ.

الجزء الرابع

٤ القلب الحاضر

الفجر على خليج أبي قير. الماء رمادي ثقيل يتمدد حتى حافة السماء، والضباب يلتف حول القوارب المربوطة كأنه يحرسها. على الشاطئ شباك منشورة على أوتاد خشبية، تقطر بقايا ماء، ورائحة الطحالب والملح والسمك المجفف تعلو على كل شيء. وفي ركن بعيد فرن طيني يفتح بابه بدخان أبيض، وامرأة تلصق على جداره رغيفاً بحركة لا تخطئها منذ ثلاثين سنة.

بين البيوت المتلاصقة، بيت صغير مطلي بالجير الأزرق، نافذته مفتوحة على البحر، وفي النافذة سراج يرتعش. في الداخل رجل ينهي صلاته ببطء، ثم يجلس على حصيرته ويضم يديه إلى صدره ويسكت.

لا يتحرك. لا يهمس. ومن يمر بالنافذة يظن أنه نائم. لكنه في الحقيقة **أنشط** رجل في الحي: قلبه يعمل.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن أقرب طريق إلى الله ليس في الحركات الظاهرة وحدها، بل في حضور القلب: أن يعلم أنه مرئي، وأن يصفّي نيته، وأن يصدق في ما لا يراه أحد.**

المقام العاشر

10

العين التي لا تنام

صار هاشم يزور عم سالم كل جمعة في بيته الجديد عند أبي قير، إذ نقله أولاده إلى هناك لشدة تعب ركبتيه. وكان يصل بعد الفجر، يحمل كيساً من الخبز الساخن، فيجد الرجل جالساً أمام النافذة، وعيناه على الماء، وكوب الشاي بجواره قد برد.

قال هاشم: «كنت أظن أنني بعد أشهر من الورد والدفتر سأحس بشيء أكبر. لكنني أكتشف أنني ما زلت أتصرف أمام الناس بطريقة وأمام نفسي بطريقة.»

ابتسم عم سالم: «هذه هي المسألة يا ولدي. ما الفرق بين ما تفعله وأنت وحدك وما تفعله وأنت مرئي؟»

الدرس الأول: المراقبة

قال عم سالم: «يقول الله تعالى: «ألم يعلم بأن الله يرى» (العلق 14)، ويقول: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (ق 16)، ويقول: «وهو معكم أينما كنتم» (الحديد 4). وهذا أصل ما سمّاه أهل السلوك **المراقبة**: أن يعلم العبد

أن الله مطلع عليه في كل حال، فيستحي ويحسن. وقد عرّفها القشيري في *الرسالة* بهذا المعنى تقريباً، وتحدث عنها الحارث المحاسبي في *الرعاية*، وبسط القول فيها ابن القيم في *مدارج السالكين*.»

ثم قال: «وهي ليست خوفاً مرضياً، بل **انتباه محب**. فمن رأى أن أباه يراه لا يهرب منه، بل يحسن أمامه. لكن البشر ينسون. فاجعل لنفسك **ثلاث وقفات** في اليوم:»

1. **قبل أن تتكلم:** ثانية واحدة. هل هذا الكلام مما يرضي من يراني؟
2. **قبل أن تعمل:** نظرة قصيرة إلى النية. لماذا أفعل هذا؟
3. **قبل أن تنام:** مراجعة سريعة لما كنت أخفيه عن الناس اليوم.

قال هاشم: «وإن نسيت؟»

«تعود. كما قلنا في الخشوع: ليس المطلوب ألا تنسى، بل أن تتذكر سريعاً. ومن جعل لنفسه وقفة واحدة في اليوم ثم أتقنها فهو أفضل ممن جعل عشراً ثم هجرها.»

دمعة في الخلوة

وحكى عم سالم لهاشم عن مشهد من أعظم مشاهد المراقبة. ففي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (متفق عليه) ذكر النبي صلى الله عليه وسلم «رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»، و«رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

قال: «انظر إلى الصفتين: كلاهما في **الخلوة**. وكلاهما فعل ما فعل لأن قلبه حاضر. ومثلهما في القرآن قصة يوسف عليه السلام: «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي» (يوسف 23). فالمراقبة هي أن تقول في موضع لا يراك فيه أحد: **معاذ الله**، لأن الله يراك.»

وأعطاه تمريناً: «اجعل لك **موضعاً** تتعمد فيه المراقبة: مثلاً أول ما تفتح الحاسوب، أو أول ما تدخل غرفتك وحدك. قل بقلبك: اللهم إنك تراني، فاحفظني. واجعلها عادة في هذا الموضع بالذات.»

توسعة شرعية: الرقيب في القرآن

ورد اسم الله **الرقيب** في القرآن مرات، منها قوله تعالى: «إن الله كان عليكم رقيباً» (النساء 1)، وقوله: «وكان الله على كل شيء رقيباً» (الأحزاب 52). وفي سورة ق: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق 18)، أي أن الملكين يسجلان ما تقول، وكذلك ما تعمل.

وجاء في حديث الترمذي، وحسّنه بعض أهل الحديث، وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». فقوله «حيثما كنت» يشمل الخلوة والجلوة.

ويذكر أهل السلوك للمراقبة تدرجاً يقرب من هذا: أن تعلم أن الله يراك، ثم أن تستحيي منه، ثم أن تعمل له لأنك تحبه. وصياغة هذا التدرج تختلف من كتاب إلى كتاب، وقد بسط القول في المراقبة ابن القيم في *مدارج السالكين*. والمقصود أن المراقبة تنتقل من الخوف إلى الحياء إلى الحب.

فقه المراقبة: المراقبة لا تعني الوسوسة في كل حركة، بل أن يكون في القلب **ميزان** يمنع من الحرام ويدفع إلى الواجب. فمن وسوس حتى عطّل حياته فليراجع طبيباً، فالدين يسر.

وصية العابد

اجعل لنفسك ثلاث وقفات: قبل الكلام، وقبل العمل، وقبل النوم. واسأل: هل يرضي هذا من يراني؟

المقام الحادي عشر

11 الذي لا يريد شيئاً

كان عم سالم يعلّم أولاد الحي القرآن بعد العصر في بيته، وقد رآه هاشم يوماً يجلس مع طفل لا يتجاوز السابعة يقرأ ببطء، والرجل لا يصحح خطأه بحدة، بل يعيد الكلمة بصوت هادئ حتى ينطقها الصبي صحيحة. وفي نهاية الجلسة ناوله الصبي فطيرة صغيرة أرسلتها أمه، فابتسم وقال: «بارك الله فيك. أعطها لصاحب الفرن عنّي.»

سأله هاشم بعد انصراف الصبي: «ألا تأكلها؟ لماذا تعطيها لغيرك؟»

الدرس الثاني: الإخلاص

قال عم سالم: «لأن المسألة ليست الفطيرة. الإخلاص أن يكون عملك لله وحده. قال الله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» (البينة 5). ومدح الله قوماً قالوا: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً» (الإنسان 9).»

ثم قال: «وفي صحيح مسلم حديث مخيف: أن أول من يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استُشهد، ورجل تعلّم العلم وقرأ القرآن، ورجل وسّع الله عليه فأنفق ماله، وقد قيل لكل منهم إنه فعل ليقال عنه، وقد قيل. وهذا يعلّمنا أن **العمل الظاهر الصالح** قد يفسده **الباطن**.»

وأضاف: «ويُروى عن **الفضيل بن عياض** قوله: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما». أي أن لا تترك الخير خوفاً من كلام الناس، ولا تفعله لتنال إعجابهم.»

ثم أعطاه ثلاثة تمارين:

1. **قبل العمل:** اسأل نفسك: لو لم يعلم أحد بهذا العمل، هل كنت سأفعله؟
2. **عمل خفي أسبوعي:** اجعل لنفسك عملاً صالحاً لا يعلم به أحد.
3. **حين يمدحك أحد:** قل في نفسك: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

ثم قال بلطف: «ولا تتعذب وتقول: لا أنا مخلص. الإخلاص يُجاهَد فيه طول العمر. ومن جاهد وقع في النية أحياناً فتاب وعاد، فهو في الطريق.»

ثلاثة في كهف

وروى عم سالم لهاشم حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار (متفق عليه): فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم باب الغار. فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها. فدعا الأول ببرّه بوالديه، والثاني بعفّته بعد قدرته، والثالث بأمانته في أجر أجير ترك أجره فثمّره له. وفي كل مرة انفرجت الصخرة قليلاً حتى خرجوا.

قال عم سالم: «ما سرّ استجابة الله لهم؟ أن أعمالهم كانت **في الخفاء**، ولا يعلمها إلا الله. ولم يذكروها لتنفعهم عند الناس، بل عند الله وحده.»

وأضاف: «فاسأل نفسك: إن انسدّ عليّ غار، فما العمل الذي أدعو الله به؟ إن لم تجد، فأمامك فرصة لتصنع عملاً يكون لك يوماً ما.» وأعطاه تمريناً: أن يكتب ثلاثة أعمال صالحة قام بها خالصة لله، ويحتفظ بها في دفتره، ويضيف إليها كل شهر عملاً جديداً.

توسعة شرعية: الرياء والسمعة وبشرى المؤمن

قال الله تعالى: «فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص» (الزمر 2 و3)، وقال: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين» (الأنعام 162). وروى النسائي، وحسّنه بعض أهل الحديث، أن الله «لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهه».

الرياء هو أن تعمل العمل ليراك الناس، **والسمعة** أن تعمل ثم تتحدث به ليسمعوا. وقد سمّاه النبي صلى الله عليه وسلم **الشرك الأصغر** فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء» (رواه أحمد وصححه بعض أهل الحديث).

لكن ليس كل مدح رياء. فقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» (رواه مسلم). فمن عمل لله فمدحه الناس ففرح بفضل الله، لا يضره. وإنما الخطر في أن يكون المدح **الغاية**.

وقال العلماء إن الرياء إذا خالط العبادة من أولها أبطلها، وإن طرأ في أثنائها دافعه صاحبه فلا يضره، وإن استرسل فيه أفسدها. ولا يجوز ترك العمل خوف الرياء، فتلك حيلة الشيطان، كما قال الفضيل بن عياض فيما يُروى عنه.

وصية العابد

اسأل قبل كل عمل: هل أفعله لو لم يعلم به أحد؟ واجعل لك عملاً خفياً أسبوعياً، ولا تتعذب بوسواس الإخلاص.

المقام الثاني عشر

12 الكذبة الصغيرة

حدث في ذلك الأسبوع شيء جعل هاشم يهرب إلى أبي قير مكسور الوجه. كان في اجتماع في الشركة، وسأله مديره عن موعد تسليم شحنة، وكان يعلم أنها ستتأخر. ولكنه قال بسرعة: «ستصل غداً.» ثم هرع بعد الاجتماع يتصل بالميناء يرجو أن تصل في الوقت. لم تصل.

جلس أمام عم سالم يروي ما حدث وصوته يتعثر. وفي الخارج، كان الموج يضرب الصخور بتكرار أعمى.

الدرس الثالث: الصدق

قال عم سالم بهدوء: «قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة 119). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور...» (متفق عليه). وجعل أبو إسماعيل الأنصاري الصدق من منازل السائرين.»

ثم قال: «ولا أتحدث عن الكذب الكبير الذي يعرفه الناس كلهم. أتحدث عن **الكذبات الصغيرة الثلاث** التي يمارسها الجميع ويسميها مجاملة:»

1. **كذبة التجمّل:** أن تقول «سأفعل» وأنت لا تنوي أو لا تستطيع.
2. **كذبة الإنقاذ:** أن تقول ما يخرجك من حرج لحظي، كما فعلت في الاجتماع.
3. **كذبة النفس:** أن تقنع نفسك بأن تقصيرك له سبب وجيه.

ثم قال: «وعلاجها ثلاث خطوات: أولاً **الاعتراف السريع**: اذهب إلى مديرك اليوم وقل له: قلت لك بالأمس غداً، والحقيقة أنني لم أكن متأكداً، وهذا موعد أصدق. ثانياً **التصحيح**: اقترح بدائل. ثالثاً **العزم**: في المرة القادمة قل: لا أعلم، سأتحقق وأخبرك.»

في اليوم التالي دخل هاشم على مديره وقال ما قاله له عم سالم. صمت المدير لحظة طويلة، ثم قال: «شكراً. كثيرون كانوا سيختبئون خلف الأعذار. من الآن، إذا قلتَ لي موعداً سأصدقه.»

وعاد هاشم تلك الليلة يعرف أن الصدق ليس عبئاً. إنه أرخص ما يملكه.

كعب بن مالك

ثم حكى عم سالم قصة كعب بن مالك رضي الله عنه، وهي في الصحيحين: تخلف عن غزوة تبوك بلا عذر، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم جاء المنافقون يعتذرون ويحلفون، فقبل منهم علانيتهم. أما كعب فقال: «والله ما كان لي عذر.» فأُمر المسلمون بهجره خمسين ليلة، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت. ثم نزلت توبته.

وقال كعب بعد ذلك: «ما أنعم الله عليّ من نعمة بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم». ونزل فيه قول الله: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة 119).

قال عم سالم: «لم يكن أمامه إلا صدق مؤلم أو كذب مريح. اختار الصدق ودفع ثمنه خمسين ليلة. لكنه نجا. فمن اختار الصدق مرة في موضع صعب وجد أن الله يفتح له الباب.»

وأضاف: «وإن صدقتَ مرة في عملك وخسرت، فلا تظن أنك خسرت. اكتب في دفترك: ما الصدق الذي كلّفني هذا الأسبوع؟ ثم احتفظ به. فمن جمع هذه الأوراق يوماً وجد أنها أثمن ما يملك.»

توسعة شرعية: الصدق وأحكام الكلام

قال الله تعالى: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» (الأحزاب 23)، وقال: «والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون» (الزمر 33). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة» (رواه الترمذي وصححه بعض أهل الحديث).

من أحكام الصدق:

- **الأصل حرمة الكذب**، وهو من علامات النفاق: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان» (متفق عليه).
- **المزاح الكاذب:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له ثم ويل له» (رواه أبو داود والترمذي

وحسّنه بعض أهل الحديث).

- **الاستثناء للإصلاح:** روى مسلم عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيَنمي خيراً أو يقول خيراً»، وفي رواية: رخّص في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها. وفصّل الفقهاء في حدود ذلك، وقالوا إن المقصود التورية والكلام الذي لا يضر أحداً، لا الكذب المضر.
- **الوعد:** الأصل الوفاء به، وتعمّد الإخلاف من علامات النفاق.

قاعدة: إذا اضطررت فاستعمل **المعاريض** (الكلام الذي يحتمل معنيين) بدل الكذب الصريح.

وصية العابد

قل «لا أعلم، سأتحقق» بدل أن تَعِد بما لا تملك. وإن زللت فاعترف سريعاً وصحّح، فالصدق يوفر عليك كثيراً.



ميزان الجزء الرابع

في الباطن والظاهر

للإنسان وجه يراه الناس، ووجه لا يراه إلا الله. والعلاقة بين الوجهين هي أخطر ما في السلوك كله، فإن اتسع الفرق بينهما نشأ **النفاق العملي**، وإن ضاق نشأ **الصدق**. وقد قام هذا الجزء على ثلاثة أصول تضيّق هذا الفرق.

الأصل الأول: المراقبة، وهي أن تعلم أن الوجه الباطن مرئي، فلا يعود في الدنيا ما يُسمّى «لا أحد يراني». **الأصل الثاني: الإخلاص**، وهو أن تجعل الوجه الباطن هو الأصل والظاهر تابعاً له، لا العكس. **الأصل الثالث: الصدق**، وهو أن ينطبق الظاهر على الباطن في الكلمة والفعل.

ولاحظ أن هذه الثلاثة مرتبة ترتيباً تربوياً. فمن راقب علم، ومن علم أخلص، ومن أخلص صدق. أما من بدأ بالصدق قبل المراقبة فصدق خوفاً من الناس، فسقط صدقه عند أول موضع لا يراه فيه أحد.

وفي ذلك يظهر الفرق بين **الأخلاق** و**التزيّن بالأخلاق**: الأول يعمل في الظلام، والثاني يعمل أمام الكاميرا.

وخلاصة هذا الجزء: **من علم أنه مرئي أصلح باطنه، ومن أصلح باطنه صلح ظاهره دون تكلّف.**

الجزء الخامس

٥ التسليم

العصر في ميناء الإسكندرية. الغيوم الرمادية تتجمع فوق الحاويات المرصوصة كقطع من اللعب العملاقة، والرافعات الضخمة تدور بذراعها المعدنية في الهواء الثقيل، وتصدر صريراً طويلاً كحزن آلة. رائحة الزيت والحبال المبللة وأسماك فاسدة تمتزج بالريح الباردة الآتية من البحر.

على الرصيف، عمال بأقنعة وخوذ يتحركون ببطء من يعرف أن العاصفة قادمة، وسائق شاحنة يدخن بعصبية ويراقب السماء، وموظف بسترة صفراء يحدق في شاشة صغيرة ويحرك إصبعه عليها كأنه يتحسس قدراً.

وفي زاوية المكتب الزجاجي المطل على كل هذا، مهندس شاب يقف ويداه خلف ظهره، ينظر إلى الأفق ويحسب احتمالات لا نهاية لها: لو تأخرت الباخرة، لو أُغلق الميناء، لو…

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للإنسان حدّاً من الأسباب يملكه، وما وراءه فتسليم. وأن الشكر عمل لا شعور، وأن في الخلوة حياءً يحرس القلب حين يغيب الرقيب.

المقام الثالث عشر

13

اعقلها وتوكل

اتصل المدير بهاشم في الصباح ليخبره بأن العاصفة المنتظرة قد تؤخر الميناء ثلاثة أيام، وأنه يريد قراراً سريعاً: إما أن تُسحب الشحنة الحساسة من الرصيف الآن بتكلفة إضافية كبيرة، أو تُترك على أمل أن تمرّ العاصفة بسلام.

وقف هاشم صامتاً. وقبل أن يجيب قال: «سأرد بعد ساعة.» ثم ركض إلى أبي قير.

الدرس الرابع: التوكل

وجد عم سالم يخيط شبكة بإبرة طويلة، ومن حوله صيادون يتجادلون في الأسماء والأمواج. قال عم سالم دون أن ينظر: «أخبرني بالقصة.»

وبعد أن سمعها، قال: «قال الله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» (الطلاق 3). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» (رواه الترمذي وابن ماجه). لكن انتبه: الطير **تغدو**، أي تتحرك وتطلب. وفي حديث آخر رواه الترمذي أن رجلاً قال: أُرسل ناقتي وأتوكل؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اعقلها وتوكل». فالتوكل ليس ترك الأسباب، بل **الأخذ بها مع تعلق القلب بالله**.»

ثم رسم له خمس خطوات لقرار مثل هذا:

1. **اجمع المعلومات:** ماذا تقول نشرة الأرصاد؟ ما سجل الميناء في عواصف مشابهة؟ ما رأي أهل الخبرة؟
2. **قدّر الاحتمالات:** الأفضل والأسوأ والأرجح، كما تعلمت.
3. **استشر:** من يخالفك ومن يوافقك.
4. **استخر الله:** ركعتان ثم دعاء الاستخارة المعروف الثابت في صحيح البخاري.
5. **قرّر ثم سلّم:** واترك ما بعد القرار لله، ولا تُحاكم نفسك بالنتيجة.

قال هاشم: «وإن أخطأت؟»

ابتسم عم سالم: «ستخطئ يا ولدي. التوكل ليس ضماناً بالنجاح، بل طمأنينة بأنك فعلت ما تقدر عليه. ومن فعل ذلك لم يعش في الندم.»

قرر هاشم سحب الشحنة، وكلف الشركة مبلغاً إضافياً. ومرّت العاصفة بعد يومين بأقل مما قيل، وخسر ما خسر. لكنه نام تلك الليلة نوماً هادئاً، لأنه علم أنه لم يقصّر.

في غار ثور

وحكى عم سالم عن مشهد يجمع التوكل والأخذ بالأسباب في أحلى صورة: **الهجرة**. فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب كلها: اختار رفيقاً هو أبو بكر، واستأجر دليلاً خبيراً بالطريق ولو كان على غير دينهم، وخبّأ راحلتين، وأمر بمن يمحو الأثر ويبيت مكانه، وترك الطريق المعتاد ومضى إلى غار ثور واختبأ فيه ثلاثة أيام.

ثم قال: «وحين وقف المشركون على فم الغار، قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» (متفق عليه). وأنزل الله: «إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» (التوبة 40).»

قال عم سالم: «انظر إلى الترتيب: الأخذ بالأسباب كله أولاً، ثم التوكل حين ينتهي الجهد. ومن عكس الترتيب فجلس ينتظر فقد أخطأ. ومن أخذ ثم قلق فقد نقص توكله. والتوكل الكامل أن تعمل كل ما تستطيع، ثم تنام مطمئناً.»

توسعة شرعية: التوكل والتداوي

قال الله تعالى: «فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (آل عمران 159)، وقال: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» (المائدة 23). فالتوكل مقرون بالعزم، أي بعد الأخذ بالأسباب.

وفي الصحيحين حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيّرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون». وقد ظنّ بعضهم أن التوكل يعني ترك الدواء، وهذا خطأ. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داء واحد: الهرم» (رواه أبو داود والترمذي وصححه بعض أهل الحديث). وشرح العلماء الحديث الأول بأن المقصود ترك **الاعتماد القلبي** على الأسباب، لا ترك الأسباب نفسها.

فقه التوكل: الأسباب ثلاثة أنواع: **مقطوع بها** كالأكل للشبع، فتركها حرام. و**مظنونة** كالدواء، والأولى فعلها، وبعض الفقهاء يوجبها إذا غلب على الظن نفعها وكان الترك سبباً في الهلاك. و**موهومة** كالرقية الباطلة والتطير، فتركها مطلوب.

قاعدة: خذ بما يأمر به العقل والشرع، ثم قل: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وصية العابد

اعقلها وتوكل. اجمع المعلومات، وقدّر الاحتمالات، واستشر، واستخر، ثم قرّر وسلّم، ولا تحاسب نفسك بالنتيجة.

المقام الرابع عشر

14 دفتر الشكر

أعطى عم سالم هاشماً في تلك الجمعة دفتراً صغيراً آخر بغلاف أزرق. قال: «هذا دفتر **الشكر**. اكتب فيه كل ليلة ثلاثة أشياء، لا أقل. لكن بشرط: لا تكرر شيئاً.»

كانا يجلسان على الصخور، والغروب يصبغ الماء بلون وردي مخضرّ، ونوارس تحوم حول قارب يفرّغ حمولته.

الدرس الخامس: الشكر

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» (إبراهيم 7). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» (رواه أبو داود والترمذي). وجعل أهل السلوك الشكر ثلاث درجات: **شكر القلب**، وهو أن تعرف النعمة وتنسبها إلى المنعم. و**شكر اللسان**، وهو أن تحمد وتثني. و**شكر الجوارح**، وهو أن تستعمل النعمة في ما يرضي الله.»

ثم قال: «وشرط الدفتر ألا تكرر شيئاً يجعلك تفتش في حياتك عما لم تنتبه له: كوب ماء بارد، ورجل ابتسم لك في الطريق، وصوتك الذي تسمع به القرآن. وفي أسبوع واحد ستكتشف أنك كنت غنياً وأنت لا تعلم.»

وأعطاه ثلاثة أعمال للشكر العملي:

1. **رسالة شكر:** لشخص أحسن إليك ولم تشكره.
2. **شكر بالفعل:** اجعل جزءاً من نعمتك في يد غيرك، ولو قليلاً.
3. **شكر في الشدة:** حين تضيق، اكتب ثلاثة أشياء ما زالت عندك.

بعد أسبوعين، لاحظ هاشم أن قلبه صار أخف. وفي الليلة الخامسة عشرة لم يجد شيئاً جديداً ليكتبه، فجلس طويلاً ينظر إلى القلم. ثم كتب: **أنني ما زلت قادراً على أن أبحث عن شيء أشكر عليه.**

أفلا أكون عبداً شكوراً

وحكى عم سالم أن عائشة رضي الله عنها روت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقالت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» (متفق عليه).

قال عم سالم: «فالشكر عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كلمة فحسب، بل **عمل**. وقد قال الله تعالى: «اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور» (سبأ 13). فاجعل شكرك أعمالاً: صلاة، وصدقة، وإحساناً لمن حولك.»

وأعطاه ما سماه **امتحان النعم**: «اكتب في دفترك قائمة بعشر نعم لا تنتبه إليها: عيناك، سمعك، يداك، بيتك، من يحبك، دينك، وغيرها. ثم اختر ثلاثاً منها واسأل: كيف أستعملها هذا الأسبوع فيما يرضي الله؟ فإن كان لك صوت جميل فاقرأ للناس، وإن كان لك علم فعلّم، وإن كان لك مال فأنفق.»

توسعة شرعية: الشكر وأحكامه

قال الله تعالى: «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله» (لقمان 12)، وقال: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل 78). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» (رواه أبو داود والنسائي وصححه بعض أهل الحديث).

سجود الشكر: روى أبو داود وابن ماجه، وحسّنه بعض أهل الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسره أو بُشّر به خرّ ساجداً شكراً لله. واختلف الفقهاء في حكمه، فجمهورهم على **مشروعيته** عند تجدد نعمة أو اندفاع نقمة، ومنهم من لا يراه. وفي تفصيل شروطه خلاف، فراجع مذهب بلدك.

الشكر بالأركان الثلاثة: القلب (معرفة النعمة)، واللسان (الحمد)، والجوارح (استعمال النعمة في الطاعة). وقال بعض السلف: الشكر ترك المعصية. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (رواه مسلم).

ما يضاد الشكر: الكفر بالنعمة، وجحودها، ونسبتها إلى النفس وحدها كما قال قارون: «إنما أوتيته على علم عندي» (القصص 78).

وصية العابد

اكتب ثلاثة أشياء جديدة كل ليلة تشكر الله عليها. وأرسل رسالة شكر لمن أحسن إليك، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

المقام الخامس عشر

15

حياء الخلوة

جاءته لحظة ضعف ذات ليلة وهو وحده في الشقة، والبيت ساكن، والهاتف على الأريكة يضيء كعين صغيرة. فتح الشاشة بإبهامه بلا قرار، وانزلق إلى ما يعرف أنه يؤذي قلبه. ثم أغلقه بسرعة، وجلس يحدق في الجدار وقلبه يخفق خزياً.

في الصباح ذهب إلى أبي قير، ومعه ذلك الثقل الذي لا يعرف كيف يشرحه.

الدرس السادس: الحياء

لم يسأله عم سالم عمّا جرى. قال فقط: «هل تعرف لماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحياء من الإيمان» (متفق عليه)، وقال: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (متفق عليه)؟»

ثم قال: «الحياء من الناس حسن. لكن **حياء الخلوة** أعلى وأصدق. أن تستحيي من الله وأنت وحدك. وقد قال العلماء إن من علامة الإيمان أن يتغير حال المرء في الخلوة إن غاب الرقيب البشري.»

وأضاف بنبرة رفيقة: «ولا تحبط. من ضعف في موضع فلا يعني أن الطريق انتهى. لكن عليك **حماية الباب**:»

1. **قاعدة المسافة:** لا تترك الهاتف في غرفة نومك، ولا تبقَ وحدك معه في الليل.
2. **قاعدة الاستبدال:** حين تشعر بالرغبة، قم فتوضأ أو امش خمس دقائق أو اتصل بصديق.
3. **قاعدة التوبة السريعة:** إن زللت، فركعتان وتوبة في الحال ولا تؤجل.
4. **قاعدة العون:** إن غلبك الأمر وصار يتكرر ويضرّ بحياتك، فاسأل مختصاً نفسياً. وهذا ليس عيباً ولا ضعف إيمان.

قال هاشم بصوت منخفض: «شعرت بأني مرائي. أصلّي أمام الناس وأفعل ذلك في الخفاء.»

قال عم سالم: «المرائي من يريد أن يُرى صالحاً ولا يبالي بما في باطنه. أما أنت فتتألم من ذلك وتأتيني. هذا هو الحياء بعينه. فلا تيأس من نفسك، لكن أصلح.»

إذا لم تستح

وروى عم سالم حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه، عند البخاري: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت». وقال: «ومعناه، على أحد التفسيرين، أن من فقد الحياء فقد فقد ما يمنعه، فلم يبق إلا هواه. فالحياء صمام الأمان في الإنسان.»

ثم أضاف حديثاً آخر، رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث، وضعّفه غيرهم، عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا نستحيي والحمد لله. قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبِلى». وقال عم سالم: «فمن أراد حياءً حقيقياً فليحفظ **عينه وسمعه ولسانه** ويتحرى ما يدخل بطنه، وليذكر الموت.»

ثم قال: «ولا تجعل حياءك سبباً للتقصير في السؤال عن الحق. قالت عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين (رواه مسلم). فالحياء المحمود ما منع من القبيح، لا ما منع من تعلّم الخير.»

توسعة شرعية: أنواع الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر» (رواه الحاكم وصححه بعض أهل الحديث). وقال: «الحياء خير كله» (رواه مسلم).

وذكر ابن القيم في *مدارج السالكين* أنواعاً كثيرة من الحياء، منها: **حياء الجناية**، كحياء آدم عليه السلام حين فرّ من ربه بعد الأكل من الشجرة، فقال الله له: «أفراراً مني؟» فقال: بل حياءً منك يا رب (يُروى عن بعض السلف، وفي ثبوته نظر). و**حياء التقصير** كحياء الملائكة: «سبحانك ما عبدناك حق

عبادتك». و**حياء الإجلال**، وهو حياء العارف من عظمة ربه. و**حياء الكرم**، كحياء النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للضيوف: انصرفوا (كما في سورة الأحزاب 53).

وبيّن العلماء أن **الحياء المذموم** هو الذي يمنع من تعلّم الدين أو قول الحق أو طلب حقك.

فقه الخلوة: النظر المحرم في الخلوة محرم كما في العلن، لقوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» (غافر 19). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لأعلمنّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله هباءً منثوراً... إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» (رواه ابن ماجه وصححه بعض أهل الحديث).

وصية العابد

استحِ من الله في الخلوة، واحمِ الباب: ابعد الهاتف ليلاً، واستبدل الفعل، وتب سريعاً، واطلب العون إن احتجت.



ميزان الجزء الخامس

في الأخذ والتسليم

يتنازع القلب في أمور الدنيا قطبان: **الأخذ** و**التسليم**. فمن غلب عليه الأخذ وحده صار ماديّاً قلقاً يرى كل شيء بيده، فإذا أخطأ انهار. ومن غلب عليه التسليم وحده صار متواكلاً يحتج بالقدر عن تقصيره. والحق **جمع** الاثنين: أخذ بالأسباب كأنه لا يتوكل، وتسليم كأنه لا يأخذ.

وفي هذا الجزء ثلاثة ميادين لهذا التوازن. **التوكل** ميدان القرار: تأخذ بالأسباب كلها ثم تسلّم النتيجة. **الشكر** ميدان النعمة: تستعمل ما أعطيت وتنسبه إلى معطيه. **الحياء** ميدان الخلوة: تأخذ بأسباب العفة وتسلّم الأمر إلى من يراك.

ولاحظ كيف يحمي كل واحد منها من آفة تقابله: فالتوكل يحمي من **القلق**، والشكر يحمي من **الحسد**، والحياء يحمي من **الازدواج**. وأخطر الآفات الثلاث الأخيرة، لأنها تعيش في الظلام.

وفي هذا الجزء أيضاً يتبين أن **الطريق ليس خطّاً صاعداً**. فالتلميذ يخطئ ويعود، ثم يخطئ ويعود. والفارق بين السالك وغيره ليس في قلة الخطأ، بل في **سرعة العودة**.

وخلاصة هذا الجزء: **خذ بكل سبب كأنك لا تتوكل، وسلّم كل نتيجة كأنك لم تأخذ بسبب.**

الجزء السادس ٦

المودة في القربى

المغرب في ميدان الحسين. القباب والمآذن تتلألأ بالمصابيح الخضراء، وفوق رؤوس الناس تتدلى فوانيس نحاسية تتأرجح مع الريح كأنها تتهامس. من خان الخليلي القريب تفوح رائحة البخور والعود وماء الورد، وتتداخل معها رائحة الشاي بالنعناع وبخار الذرة المشوي. صوت منشد من مقهى قريب يرتفع بمقطع قديم ثم ينخفض، وخطوات آلاف الأحذية تنقر الأرض الحجرية المبللة بماء الرش.

على أبواب المسجد أحذية مكدّسة في أكياس بلاستيكية، وأطفال يلاحقون الحمام، ونساء بوشاح أبيض يمررن بين الأعمدة بخطوات خافتة، ورجل ضرير يتلو شيئاً بهمس عند العتبة، وصبي يبيع المسابح الخشبية ويرد كل مشترٍ بدعاء قصير. في الداخل نور أصفر هادئ وسجاد أحمر مهترئ من كثرة الأقدام، وفي الركن رجال يصلّون بصمت.

لا شيء في هذا المشهد يشبه الضجيج الذي في الخارج. هنا سكون كثيف، لكنه مليء بشيء لا يُرى: **محبة** تنتقل في الدم منذ قرون، من الأجداد إلى الأحفاد، دون أن يشرحها أحد.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن حب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم جزء من الدين لا ينفصل عن التوحيد، وأن له أدباً يحفظه من الغلو ومن الجفاء، وأن المساجد التي تحمل أسماءهم هي مساجد لله، يُصلّى فيها لله وحده، ويُحَب أصحابها بالدعاء والصلاة عليهم.**

المقام السادس عشر

16 بين يدي الحسين

في يوم من أيام الربيع، قال عم سالم لهاشم وهو يتكئ على النافذة المطلة على البحر: «لم أزر الحسين منذ عشرين سنة. قلبي يشتاق، وركبتاي لا تسمحان.»

لم يقل هاشم شيئاً. وفي الجمعة التالية، كان قد استعار من جاره مقعداً متحركاً، وحجز مقعدين في قطار الصباح إلى القاهرة.

سارا بين الزحام عند ميدان الحسين، وهاشم يدفع المقعد بحذر على الحجارة، وعم سالم ينظر إلى المآذن بعينين تلمعان، ويتمتم بما لا يسمع. توقفا أمام باب المسجد، وبقي عم سالم صامتاً طويلاً. ثم قال بصوت خافت: «اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.»

الدرس السادس عشر: من هم أهل البيت؟

جلسا في الصحن بعد الصلاة. وكانت المصابيح تلقي ظلالاً على الأرضية الرخامية، والحمام يتحرك بين الأعمدة.

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الأحزاب 33). وروى مسلم في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل تحت كساء الحسن والحسين

وفاطمة وعلياً، ثم تلا هذه الآية. وفي رواية الترمذي من حديث أم سلمة أنه قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً». ويدخل في أهل البيت عند أهل العلم أزواجه صلى الله عليه وسلم وذريته وآله من بني هاشم، وقد اختلفوا في بعض تفصيل ذلك.»

ثم قال: «وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب بين مكة والمدينة فقال: «أذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاث مرات. وجاء في صحيح البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: «ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته»، وقوله: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ أن أصل من قرابتي». وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الحسن والحسين: «سيدا شباب أهل الجنة».»

وأضاف: «وفي قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» (الشورى 23) اختلف المفسرون. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسّرها بصلة القرابة التي بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش. وفسّرها آخرون بمودة أهل بيته. وكل ذلك يدل على مكانة القربى.»

ثم قال: «وفي صلاتنا كل يوم نقول في التشهد: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد». فمحبة آل البيت ليست زيادة على الدين، بل هي مذكورة في صلاة كل مسلم.»

وأعطاه ثلاثة أعمال تعبّر عن هذه المحبة:

1. **الصلاة الإبراهيمية بحضور قلب:** حين تقولها في التشهد، تذكّر من تصلي عليهم.

2. **صلة الرحم:** فقد جعل أبو بكر صلة قرابة الرسول أحب إليه من صلة قرابته، وهذا يعلّمك عظم الرحم.

3. **الدعاء لهم والتأدب في ذكرهم:** وترك كل كلمة تسيء إليهم، أو إلى أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

الأزهر والحسين

في العصر، أخذ هاشم عم سالم في جولة قصيرة في الأزقة المحيطة بالمسجد. مرّا بشارع المعز بجدرانه الحجرية التي أخذت لون العسل، وبواجهات المشربيات الخشبية المحفورة، وبمحال النحاس والعطور وصناديق الصدف. وكان في الهواء رائحة الخشب العتيق والعود وماء الزهر.

وفي ميدان الحسين نفسه، من جهة، ترتفع مئذنة **الأزهر** على مبعدة خطوات. قال عم سالم: «يذكر المؤرخون أن الجامع الأزهر أُسس في العصر الفاطمي نحو سنة 359 هـ، ثم تحول مع الزمن إلى منارة علم لأهل السنة، وبقي قروناً يتعلم فيه طلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي. وهذا من مفارقات التاريخ: ما بُني على غير ما يؤمن به أهل مصر اليوم صار مصدر علمهم.»

ثم قال: «وفي حيّ الحسين يقول المصريون: سيدنا الحسين. و«سيدنا» لفظ احترام شائع في اللسان المصري، قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (رواه البخاري). فالأمر في اللغة سعة، والمهم أن يبقى قلبك على التوحيد.»

وأحب هاشم أن يعرف أكثر عن قصة الحسين، فروى له عم سالم ما يتفق عليه المسلمون من أنه استُشهد في كربلاء سنة 61 هـ، وأن المسلمين من مذاهب كثيرة يحزنون لذلك، وأنه ينبغي ألا يتحول الحزن إلى ما نهى عنه الشرع من نياحة ولطم، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك (متفق عليه).

توسعة شرعية: الحسنان والصلاة على الآل

وردت أحاديث أخرى في فضل الحسن والحسين رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم عنهما: «هما ريحانتاي من الدنيا» (رواه البخاري)، وقال عن الحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه» (متفق عليه)، وقال: «حسين مني وأنا من حسين» (رواه الترمذي وابن ماجه وحسّنه بعض أهل الحديث).

وأما **الصلاة على النبي وآله في الصلاة**، فقد اختلف الفقهاء في حكمها في التشهد الأخير: فالشافعية والحنابلة، في المشهور عندهم، على أنها واجبة أو ركن. والحنفية والمالكية على أنها سنة مؤكدة. وهذا خلاف معتبر. وأما أصل

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فمأمور بها بنص القرآن: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» (الأحزاب 56).

وفي بيان **لفظ الصلاة الإبراهيمية** روى البخاري ومسلم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: كيف نصلي عليك؟ فعلّمهم: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». فالأمر نبوي، وليس اجتهاداً.

وصية العابد

أحبّ آل بيت نبيك محبة تعلن في صلاتك ودعائك وصلة رحمك، وأدّ حقهم بالأدب، ولا تفصل حبهم عن توحيد الله.

المقام السابع عشر

17 أدب الزيارة

في اليوم التالي، مرّا في القاهرة على مساجد يحمل أهلها أسماء من آل البيت. كان عم سالم يرويها لهاشم بأسلوب من يعرفها منذ زمن:

«يذكر أهل مصر من أماكن آل البيت: **مشهد الحسين** رضي الله عنه، ويروي كثير من المصريين أن رأسه الشريف نُقل من عسقلان إلى القاهرة في العصر الفاطمي. وهذا مما اختلف فيه المؤرخون، فبعضهم يقول الرأس في كربلاء، وبعضهم في دمشق، وبعضهم في القاهرة. لكن المصريين أحبوا هذا المكان وعمّروه بالذكر. و**مسجد السيدة زينب** رضي الله عنها بنت علي وفاطمة، في الحي الذي يحمل اسمها، وللمصريين فيها محبة ظاهرة، وتختلف الروايات في موضع قبرها. و**مسجد السيدة نفيسة** بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وهي من حفيدات الإمام الحسن، عاشت في مصر وتوفيت فيها سنة 208 هـ في ما يذكره المؤرخون، وكان الإمام الشافعي رحمه الله يزورها ويعتقد صلاحها، كما تذكر الروايات. وفي القاهرة مشاهد أخرى تُنسب إلى السيدة سكينة والسيدة رقية وغيرهما، وتختلف الأقوال التاريخية في نسبة بعضها.»

ثم قال: «واعلم أن في نسبة بعض هذه المشاهد بحثاً تاريخياً لا يضر المحب. فمحبتنا لا تتوقف على تحقيق موضع قبر، بل على ما ثبت من فضلهم.»

الدرس السابع عشر: كيف تزور؟

وقفا في الظل على مقربة من ضريح السيدة زينب، والناس يتدفقون بين الباب والأعمدة. قال عم سالم: «زيارة القبور مشروعة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فزوروا القبور فإنها تذكّر الآخرة» (رواه مسلم). وعلّم أصحابه أن يقولوا إذا زاروها: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» (رواه مسلم). فمقصود الزيارة **الدعاء للميت وتذكّر الموت**.»

ثم قال بجدية: «وهنا يقع الخطأ عند بعض الناس، والعلماء يحذرون منه. لا تجعل الزيارة سبيلاً إلى **عبادة غير الله**. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (متفق عليه)، ومعناه تحذير من الغلو في القبور. فأصل العبادة لله وحده: لا سجود لقبر، ولا ذبح عنده، ولا طواف به كطواف الكعبة، ولا دعاء الميت من دون الله كأنه يملك لك ضراً أو نفعاً.»

وأضاف: «وأما **التوسل بالصالحين**، أي أن يقول الرجل: اللهم بجاه فلان أسألك، فقد اختلف فيه العلماء: منهم من أجازه بشروط، ومنهم من منعه ورأى أنه ذريعة. وهذا خلاف معتبر لا يُحسم بالصراخ. والمتفق عليه أن **الدعاء لله وحده**، وأن الأحوط أن تسأل الله مباشرة بأسمائه الحسنى وبأعمالك الصالحة.»

وقدّم له أدباً من خمس نقاط:

1. **ادخل لله:** انوِ الصلاة لله في هذا المسجد، والدعاء لصاحبه، والصلاة على النبي وآله.
2. **قل سلام الزيارة المأثور** ثم ادعُ لهم وللمسلمين وللموتى.
3. **اسأل الله وحده** حاجتك.
4. **لا تفعل ما يُظن فيه الغلو:** سجود وطواف وتمسّح مبالغ فيه وذبح.
5. **لا تنكر على الناس بغلظة:** فمن رأيته يبالغ فانصحه برفق، ولا تهنه أمام الناس.

وقال في النهاية: «وأما شدّ الرحال لزيارتهم، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (متفق عليه). وقد فهمه بعضهم على منع السفر لقصد القبور، وفهمه آخرون على أنه في السفر لقصد المساجد من حيث الفضل، ويجيزون الزيارة. ولست أفتيك. اسأل أهل العلم الذين تثق بهم في بلدك.»

الشافعي ومصر

وعلى مقربة من المسجد، ذكر عم سالم لهاشم **الإمام الشافعي** رحمه الله، فقال: «دخل مصر سنة 199 هـ وبقي فيها حتى وفاته سنة 204 هـ، فصنّف فيها كثيراً من علمه، وانتشر مذهبه بين المصريين. وكان معروفاً بحب

آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وتنسب إليه أبيات مشهورة في هذا المعنى، يقول فيها ما معناه إنه إن كان حب آل محمد رفضاً فليشهد الثقلان أنه رافضي. وقد قالها في زمن اشتد فيه الاتهام والخصومة.»

ثم قال: «وهذا درس: أن حب آل البيت لا يعني بالضرورة الانتماء إلى مذهب معين. فالشافعي إمام من أئمة أهل السنة، وهو في الوقت نفسه من أشد الناس حباً لآل البيت.»

وأعطى هاشماً اقتراحاً: «في كل جمعة قبل أن تبدأ بالدعاء، قل: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وتأمل: ما أعظم أن يكون اسم آله مقروناً باسمه في صلاة كل مسلم.»

توسعة شرعية: أحكام القبور والزيارة

زيارة النساء للقبور: اختلف الفقهاء فيها. فقد روى الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث: «لعن الله زوّارات القبور»، وروى مسلم أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم ماذا تقول إذا زارت القبور فعلّمها السلام المعروف. فذهب جماعة إلى الجواز مع الأدب وعدم الجزع، وجماعة إلى الكراهة، وجماعة إلى المنع. وتفصيل ذلك عند أهل كل مذهب، فراجع فتوى بلدك.

نهي عن بعض الأفعال عند القبور: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلّوا إليها» (رواه مسلم)، ونهى عن تجصيص القبور والبناء عليها (رواه مسلم). وقد اختلف العلماء في حكم البناء على القبور وفي تفاصيل الصلاة في المساجد التي بها قبور، بين الكراهة والتحريم والجواز، بحسب الحال. فلا تنكر على الناس بغلظة ما اختلف فيه العلماء.

السلام على الموتى: يُستحب أن تقول السلام المأثور ثم تدعو لهم. ومن السنة **زيارة القبور للاعتبار**، كما في حديث مسلم: «فزوروا القبور فإنها تذكّر الآخرة».

قاعدة: أصل الزيارة مشروع بضوابطه، ومن خالف الضوابط بالشرك أو الغلو فلينصح برفق، ومن اختلف في مسألة فرعية فلا يُنكَر عليه.

وصية العابد

زُر لتدعو وتتذكر الموت، لا لتعبد أو تغلو. اسأل الله وحده، وصلِّ على النبي وآله، وانصح برفق من رأيته يبالغ.

18

المقام الثامن عشر

حب بلا غلو

في صحن المسجد، رفع رجل في الثلاثين صوته فجأة على آخر أكبر منه سناً: «هذا شرك! أنتم تدعون الأموات!»

التفت الناس. اشتد الصوت، وجاء ثالث يصيح: «وأنت تكره آل البيت!» واحمرّت الوجوه، وتقدم شاب يمسك أطراف ثوبه كأنه سيتدخل بيده.

وكان عم سالم جالساً على مقعده المتحرك، فنظر إلى هاشم وقال بصوت منخفض: «ادفعني إليهم.»

الدرس الثامن عشر: بين الغلو والجفاء

وصل عم سالم إلى الدائرة، ورفع يده بهدوء، فسكت الجميع لهيبة شيبته. قال بصوت خافت: «يا أولاد، أنا رجل جاهل، لكن اسمحوا لي بسؤالين. الأول: هل تحبون أن يصلى على النبي وآله؟»

قالوا: «نعم.»

«والثاني: هل تعبدون إلا الله؟»

قالوا: «لا.»

قال: «إذن أنتم متفقون على أصل الأمر. أحدكم يخاف أن يقع الناس في الغلو، وهذا خوف صالح. وأحدكم يخاف أن يُجفى أهل البيت، وهذا خوف صالح. والخلاف في بعض الأفعال أمر العلماء، لا الصراخ في المسجد.»

ثم التفت إلى هاشم وقال بصوت يسمعه الجميع: «ذكر أهل العلم أن أهل السنة وسط في هذا الباب: يحبون آل البيت جميعاً ويعرفون لهم فضلهم، ولا يعبدونهم ولا يغلون فيهم، ويحبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، ولا يسبّون أحداً منهم. وتُنسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله أبيات في حب آل البيت يقول فيها ما معناه إن حبهم فرض أنزله الله في القرآن، وإن من لم يصلّ عليهم لا صلاة له. وقد اختلف العلماء في فهم هذه العبارة، لكن مقصدها تعظيم المحبة.»

سكت الرجال. ثم قال الأكبر سناً: «والله لم أقصد الإساءة.» وقال الشاب: «ولا أنا.» وتصافحا، وقد احمرّت عيونهما.

وفي طريق العودة، قال عم سالم: «هل رأيت؟ الحب بلا علم قد يغلو، والعلم بلا حب قد يجفو. وأحسن منهما حب بعلم وعلم بحب. وإن رأيت خلافاً بين مسلمين فاسأل نفسك: ما الذي يتفقان عليه؟ فمن بدأ بما يتفق عليه الناس سهل عليه الحديث فيما يختلفون فيه.»

وفي ساعات العودة الطويلة في القطار، نام عم سالم على كتف هاشم. وسعل سعالاً خفيفاً في نومه، فأحسّ هاشم برعدة في قلبه، ولم يعرف لماذا.

لا تطروني

وبعد ما هدأ المسجد، جلس عم سالم وهاشم على درج هادئ. قال عم سالم: «أريدك أن تحفظ حديثين يحرسانك من الطرفين.»

وقال: «الأول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» (رواه النسائي وابن ماجه وصححه بعض أهل الحديث). والثاني في صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».»

ثم قال: «فانظر. النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وهو أحب الخلق إلى الله، نهانا عن أن نرفعه فوق مقامه. فكيف بمن دونه من آله وصحابته؟ هذا هو ميزان الاعتدال: أحبّهم حباً يحمل على الاقتداء، ولا ترفعهم إلى ما لا يليق إلا بالله. ولا تقل في أحد منهم ما لا تقوله في بشر.»

وأضاف: «ومن سمع من يتجاوز فليُذكّره بالحديث بلين: «لا تطروني». ومن سمع من يهوّن فيذكّره بحديث «أذكّركم الله في أهل بيتي». وإن اشتد الحديث بينكما، فاترك الحوار قبل أن يفسد القلب.»

توسعة شرعية: حقوق الصحابة والإمساك عما شجر

قال الله تعالى: «والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا» (الحشر 10). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه» (متفق عليه).

وذكر العلماء من أهل السنة أن من أصول الاعتقاد **محبة الصحابة جميعاً** و**الكف عن الخوض** فيما جرى بينهم من خلافات، مع الإقرار بفضلهم. ويُنسب إلى عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، قوله في ما معناه: تلك دماء طهّر الله منها سيوفنا فلا نلطخ بها ألسنتنا. وفي ثبوت نسبته كلام، لكن المعنى مشهور عند أهل السنة.

وأما ما ورد من فضل آل البيت فلا يتعارض مع محبة الصحابة، فالجميع من خير القرون. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (متفق عليه).

قاعدة: أحبّ آل البيت والصحابة جميعاً، ولا تجعل حب أحد سبباً في بغض آخر. وإذا اختلف أهل العلم في مسألة تاريخية فقل: الله أعلم، وارحمهم جميعاً.

وصية العابد

أحبّ آل البيت ولا تغلُ، وأحبّ الصحابة كلهم ولا تسبّ أحداً، وابدأ دائماً بما يتفق عليه المسلمون قبل ما يختلفون فيه، وانصح برفق.



ميزان الجزء السادس

في المودة والاعتدال

للمحبة في الإسلام ميزان، فهي ليست شعوراً حراً يندفع حيث شاء، بل عاطفة تُضبط بالعلم. ولذلك جاء في هذا الجزء ثلاث مراتب لمحبة آل البيت. **المرتبة الأولى: محبة القلب**، وأصلها ما ثبت من فضلهم في القرآن والسنة، فهي تُبنى على النص لا على الهوى. **المرتبة الثانية: صلاة اللسان**، وهي أن يتحول القلب إلى كلمة: الصلاة عليهم، والدعاء لهم، والتأدب في ذكرهم. **المرتبة الثالثة: اقتداء العمل**، وهي أن يتحول الكلام إلى سلوك: صلة الرحم، والصدق، والرحمة بالخلق، فإن أعظم ما يحبه آل البيت في محبيهم أن يشبهوهم.

وفي كل مرتبة آفة على الجانبين. فآفة المحبة **الغلو**، وهو رفع البشر إلى ما ليس لهم. وآفة التحرز منها **الجفاء**، وهو أن يخاف المرء من الغلو فيترك الحق الواجب. ومن عرف الآفتين سلك الوسط: **محبة تتأدب، وأدب لا يتحول إلى قسوة**.

ولاحظ أن الخلاف المذكور في هذا الجزء، في التوسل وشدّ الرحال وبناء المشاهد، ليس خلاف أصول بين مسلم وغيره، بل هو خلاف فروع بين علماء يتفقون على التوحيد والمحبة. والعاقل لا يجعل الفرع سيفاً على من يشاركه الأصل.

وخلاصة هذا الجزء: **من أحب آل البيت بعلم عرف حقهم دون غلو، ومن عرف حدّ المحبة أحبّ أكثر.**

الجزء السابع ٧

القرب

ليلة في بيت عم سالم عند أبي قير. الظلام كثيف إلا من سراج صغير يرتعش على الطاولة الخشبية. من خلف النافذة يأتي هدير البحر منتظماً كتنفس كائن كبير نائم، ورائحة الملح والحبال المبللة تتسلل من الشقوق، وفوق السطح نجوم لا تُحصى تلمع بين الغيوم المتقطعة.

على الحصير، رجل عجوز ممدّد، ملتحف بغطاء رقيق، وبجانبه شاب يمسك يده بين كفيه. لا يتكلمان. ثمة سكون لا تقطعه إلا طقطقة الخشب الصغيرة وهمس الموج.

وعلى الطاولة دفتران: واحد أخضر قديم بخط مرتجف، وآخر أزرق طري. وكأن كل واحد منهما ينتظر دوره ليُكمل ما بدأه الآخر.

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن الاتباع هو طريق المحبة الصادق، ثم يتعلم أعمق ما في الطريق وأبسطه: المحبة التي تجعل العبادة أنساً لا واجباً، والافتقار الذي يعرف به العبد أن كل ما عنده عارية، ثم ختام الطريق الذي هو بداية لغيره.

المقام التاسع عشر

19

كيف تكون محمدي المنهج والسلوك

وجد هاشم عم سالم ذات جمعة جالساً على عتبة بيته عند أبي قير، وفي حجره قميص قديم، وبين أصابعه إبرة غليظة وخيط أبيض، يحاول إدخال الخيط في ثقبها بعينين تتضاحكان مع الضوء. على الأرض كوب شاي، وإلى جانبه زر مخلوع. وفي الخارج كانت الأطفال تجري خلف كرة من خرق، والبحر يهزّ المراكب هزاً بطيئاً.

قال هاشم وهو يقترب: «أعطني أخيطه لك.»

ابتسم عم سالم: «لا. أنا أخيط ثوبي. أما تعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته؟ (رواه أحمد وصحّحه بعض أهل الحديث). وسألت عائشة رضي الله عنها: ما كان يصنع في بيته؟ فقالت: «كان يكون في مهنة أهله» أي في خدمتهم، «فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» (رواه البخاري).»

سكت هاشم لحظة، ثم قال: «أخي الصغير سخر مني الأسبوع الماضي. قال لي: صرتَ شيخاً وتركتَ الناس. وأنا لا أعرف كيف أرد.»

الدرس التاسع عشر: الاتباع منهج وسلوك

وضع عم سالم القميص جانباً، وقال: «اجلس. المسألة أبسط وأكبر مما تظن.»

ثم قال: «قال الله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» (الأحزاب 21)، وقال: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (آل عمران 31). وهذه الآية، كما تعلمنا، ميزان المحبة. فمن أراد أن يكون محمدياً فعليه أن يتبعه في **المنهج** وفي **السلوك**، لا في الشكل وحده. وقال الله تعالى عنه: «وإنك لعلى خلق عظيم» (القلم 4)، وسُئلت عائشة عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن» (رواه مسلم).»

أولاً: المنهج، أي كيف تفهم الدين وتمارسه

وأعطاه ثلاثة أعمدة:

1. **اتباع بلا ابتداع:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (متفق عليه). فالأصل أن تتعلم الأحكام من القرآن والسنة بفهم أهل العلم، لا أن تخترع عبادات من عندك. وقال الله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر 7).

2. **وسطية بلا غلو ولا تفريط:** روى البخاري أن ثلاثة نفر جاؤوا يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنهم تقالّوها. قال أحدهم: أنا أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال

الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.» فالاتباع ليس التشدد، بل **الاعتدال**. وقال: «إن الدين يسر» (رواه البخاري)، وقال: «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (متفق عليه).

3. **علم قبل عمل:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (متفق عليه). فاسأل واقرأ وتعلم من أهل العلم الموثوقين، ولا تقتصر على مقاطع قصيرة.

ثانياً: السلوك، أي كيف تعيش كل يوم

وأكمل عم سالم: «والمنهج بلا سلوك جدار بلا سقف. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق» (رواه أحمد وصحّحه بعض أهل الحديث، وجاء بلفظ «مكارم الأخلاق»). وقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (رواه أبو داود والترمذي).»

ثم عدّد له سبع خصال يومية يستطيع أن يبدأ بها:

1. **الرفق:** «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه» (رواه مسلم).

2. **ضبط الغضب:** «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه).

3. **الخدمة في البيت:** «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (رواه الترمذي وابن ماجه). فاغسل كوباً، وساعد أمك، واسأل زوجتك أو أخاك: ماذا أفعل لك؟

4. **التيسير:** قالت عائشة: «ما خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً» (متفق عليه). لا تُعسّر على نفسك ولا على غيرك.

5. **الابتسامة:** «تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة» (رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث).

6. **الأمانة والصدق:** وقد عُرف النبي صلى الله عليه وسلم في قومه قبل البعثة بـ«الصادق الأمين» كما تذكر كتب السيرة.

7. **العفو:** قال الله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» (آل عمران 159).

ثالثاً: ما ينبغي أن تحذره

وختم بقوله: «انتبه من ثلاثة أخطاء. الأول: أن تحصر الاتباع في **المظهر**، فتعتني بالهيئة وتهمل الخُلق. والثاني: أن تتخذ الاتباع **لقباً** تعلو به على الناس، فتقول: أنا على السنة وغيري لا. فقد قال تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» (النجم 32). والثالث: أن **تنفر** الناس بالغلظة وأنت تظن أنك تدعوهم. أما قال الله لنبيه: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»؟»

خطة سبعة أيام

وأعطاه خطة بسيطة، سنة واحدة كل يوم، ليتدرب عليها:

- **اليوم الأول:** البسملة وأكل باليمين، وقول «الحمد لله» بعد الطعام.
- **اليوم الثاني:** ابتسامة صادقة في وجه كل من تقابل.
- **اليوم الثالث:** عمل في البيت بيدك دون أن يُطلب منك.
- **اليوم الرابع:** ركعتان من الضحى، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إن على كل مفصل من الإنسان صدقة، ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى (رواه مسلم).
- **اليوم الخامس:** صيام الاثنين أو الخميس، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيامهما (رواه الترمذي وحسّنه).
- **اليوم السادس:** صلة رحم: زيارة أو اتصال.
- **اليوم السابع:** الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بحضور قلب، وقراءة صفحة من سيرته.

ابتسم هاشم وقال: «وأخي؟ ماذا أقول له؟»

قال عم سالم: «لا تقل له شيئاً. أحسن خلقك معه. وإن سألك: هل صرتَ شيخاً؟ فقل: لا، لكني أحاول أن أكون أخاً أفضل.»

وفي الجمعة التالية، حين عاد هاشم إلى بيت أمه، ورأى أخاه الأصغر يبحث عن مفتاح سيارته بعصبية، سأله بهدوء: «هل أساعدك؟» ووجد المفتاح تحت الأريكة. نظر إليه الأخ نظرة طويلة ولم يعلق، لكنه لم يسخر منه في تلك الليلة.

الأعرابي في المسجد

وقبل أن يغادر هاشم، قال له عم سالم: «أريد أن أحكي لك أجمل ما أعرفه من رفق النبي صلى الله عليه وسلم. روى أنس رضي الله عنه في الصحيحين أن أعرابياً دخل المسجد فبال في ناحيته، فقام الصحابة إليه ليمنعوه، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه ولا تزرموه». فلما قضى بوله دعاه، وقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن». ثم أمر بدلو من ماء فصُبّ عليه.»

قال عم سالم: «لاحظ: لم يصرخ، ولم يطرده، ولم يُهِنه. علّمه بلين، وأزال الأذى بسرعة. وفي رواية أن الأعرابي قال بعد ذلك: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «لقد حجّرت واسعاً»، أي ضيّقت ما وسّعه الله.»

وأضاف: «فإن أردت أن تكون محمدي السلوك، فتذكر هذه القصة كلما رأيت من يخطئ. اسأل نفسك: كيف يعلّمه رسول الله لو كان هنا؟ لا تُعنّفه أمام الناس، ولا تتشفّ فيه، بل علّمه برفق وأزل الأذى.»

توسعة شرعية: سنن الهدي وسنن العادة

من الدقائق التي ذكرها العلماء التفريق بين **السنة المتبعة تعبداً** والسنة التي كانت **عادةً**. فمثلاً: الصلاة وهيئاتها وأذكارها وصيام الاثنين والخميس، هي عبادات يُتقرب بها فيُتأسى فيها. أما نوع اللباس والطعام الذي كان يلبسه ويأكله صلى الله عليه وسلم بحكم بيئته، فقال كثير من العلماء إنه من العادات، يُستحب التأسي به إن كان في ذلك حب واقتداء، لكن لا يُنكر على من لم يفعله. ولا يجوز أن يقال إن تارك ذلك تارك للسنة بالمعنى الشرعي الواجب.

وفي الأخلاق، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله». وروى البخاري ومسلم أنه «لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً». وقال أنس رضي الله عنه: «خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعته: لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته: لِمَ تركته؟» (متفق عليه).

قاعدة: ابدأ بالأصول: التوحيد والفرائض والأخلاق. ثم السنن المؤكدة. ثم ما كان من العادات إن تيسّر، بلا إنكار على أحد.

وصية العابد

كن محمدياً بالمنهج: اتبع بلا ابتداع، واعتدل بلا غلو، وتعلم قبل أن تعمل. وبالسلوك: ارفق، واضبط غضبك، وخدم أهلك، ويسّر، وابتسم، واصدق، واعفُ. ولا تجعل الاتباع لقباً ولا مظهراً.

المقام العشرون

20 المحبة

كان مرض عم سالم قد بدأ يظهر منذ الشتاء: تعب في الصدر وسعال يطول. وقد زاره الطبيب مرتين وأعطاه دواءً، لكن الرجل ظلّ يرفض الذهاب إلى المستشفى بحجة أن البحر أولى به.

في إحدى الجمع، جلس هاشم عند رأسه وسأله: «كيف تحب الله يا عم سالم؟ أقصد: ما معنى المحبة عندك؟ أنا أخافه وأرجوه، لكنني لا أعرف إن كنت أحبه.»

سكت عم سالم قليلاً، وفي عينيه ما يشبه ابتسامة.

الدرس السابع: المحبة

قال: «هذا سؤال يخاف منه كثيرون. قال الله تعالى: «يحبهم ويحبونه» (المائدة 54). وقال: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (آل عمران 31). وهذه الآية تضع ميزاناً للمحبة: **الاتباع**. فمن ادعى حباً لله ولم يتبع رسوله صلى الله عليه وسلم فدعواه ناقصة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (متفق عليه).»

ثم قال: «وقد تكلم أهل الطريق في المحبة كثيراً. اشتهرت **رابعة العدوية** (القرن الثاني الهجري) بما نُقل عنها في حب الله لذاته، وعقد **الغزالي** في *الإحياء* كتاباً للمحبة والشوق والأنس والرضا، وفصّل **ابن القيم** في *مدارج السالكين* في المحبة. لكن احذر: بعض ما يُنسب إلى هذا الباب من عبارات الشوق والعشق مبالغ فيه أو يوهم بما لا يليق. وقد قال العلماء: **المحبة الصادقة لا تُسقط تكليفاً.** فمن قال: أنا أحب الله فلا أصلي، فهو مخطئ.»

وأعطاه ما سمّاه **مفاتيح المحبة** (ذكرها الغزالي ومن بعده على أنحاء مختلفة):

1. **معرفة النعم:** فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.
2. **تلاوة القرآن بتدبر:** فمن أحب كلاماً أحب قائله.
3. **قيام الليل ولو ركعتين:** لحظة خلوة بين العبد وربه.
4. **الإكثار من الذكر.**
5. **تقديم ما يحبه الله على ما تحبه نفسك حين يتعارضان.**
6. **مجالسة الصادقين.**

وقال في النهاية: «وتذكّر: الحب في هذا الطريق ليس شعوراً تنتظره، بل **عمل** تزرعه. فازرع الأعمال، والله يرزقك الأنس إذا شاء. فإن لم يأتِ فلا تحزن، فالأحوال لا تُطلب لذاتها.»

مع من أحببت

وفي ختام جلسة المحبة، قال عم سالم لهاشم: «أريد أن أبشرك بحديث. روى أنس رضي الله عنه في الصحيحين أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟ فقال: «وما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.»

قال عم سالم: «وما أجمل أن يكون في قلبك هذا الرجاء. لكن لاحظ: الرجل ما قال لا أصلي ولا أصوم، بل قال لم أعدّ **كثيراً**. فالمحبة لا تغني عن العمل، لكنها تدفع إليه وترفع قيمته.»

وأضاف: «فاجعل لك اليوم عملاً صغيراً تهديه إلى من تحب: صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً، وصدقة صغيرة عن أبيك أو أمك، وكلمة طيبة. ومن أحب فليُظهر حبه بالعمل.»

توسعة شرعية: درجات المحبة

قال الله تعالى: «والذين آمنوا أشد حباً لله» (البقرة 165)، وقال في تحذير المحبّين للدنيا: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره» (التوبة 24).

وروى البخاري ومسلم حديث **حلاوة الإيمان**: «ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار». فهذه علامات المحبة الصحيحة: أن يقدّم ما يحبه الله على هواه، وأن يحب في الله، وأن يكره ما يبغضه الله.

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المرء مع من أحب». وقد ذكر العلماء أن **أعلى علامات المحبة الاتباع**، ثم **كثرة الذكر**، ثم **الأنس بالخلوة**، ثم **تقديم أمر المحبوب**. وليست المحبة دعوى باللسان أو دموعاً في المجالس، فمن ادّعى المحبة وترك الفرائض فقد خالف ما دلّ عليه القرآن.

وصية العابد

المحبة تُزرع بالأعمال: اعرف النعم، وتدبّر القرآن، وقم ولو ركعتين، واتبع الرسول. وإن لم يأتِ الأنس فلا تحزن، فالأعمال هي الطريق.

21

المقام الحادي والعشرون

كلنا فقراء

في تلك الليلة اشتد السعال على عم سالم، وأحس هاشم بأن الأمر أكبر مما قيل. اتصل بأخي الرجل، وجاء الطبيب في الصباح الباكر، وقال بعد الفحص بنبرة حذرة: «يجب أن ينتقل إلى المستشفى. حالته أسوأ مما ظننا.»

نظر عم سالم إلى سقف الغرفة وقال بصوت واهن: «الحمد لله.»

وبينما ينتظرون سيارة الإسعاف، قال لهاشم: «اقترب. أريد أن أقول لك شيئاً.»

الدرس الثامن: الافتقار

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد» (فاطر 15). وهذا من أعمق ما في الطريق: أن تعلم أنك **فقير** إلى الله في كل لحظة، في الأنفاس والرزق والعافية والهداية. وفي الحديث القدسي في صحيح مسلم: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.»»

ثم قال: «وفي *الحِكَم* لابن عطاء الله حكمة تختصر الأمر: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها». فمن رضي عن نفسه وقف، ومن شعر بالافتقار سار. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله» (رواه أبو داود وحسّنه بعض أهل الحديث).»

وأضاف بصوت يتقطع: «وهذا هو سر ما قلته لك أول يوم: **الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر**. من يعرف أنه لا يعرف قد فتح باب التعلم. ومن يعرف أنه فقير قد فتح باب الغنى.»

قال هاشم والدمع في عينيه: «وأنا فقير إليك أيضاً يا عم سالم.»

ابتسم الرجل ابتسامة تعبة: «لا. أنت فقير إلى الله. وأنا كنت وسيلة. فاعرف الوسيلة ولا تتعلق بها. والآن، خذ هذا الدفتر.»

ومدّ إليه الدفتر الأخضر القديم.

أغصان الذل

وفي ليلة وهو يجلس إلى جوار عم سالم، قال له الرجل: «سأقول لك حكمة من الحِكَم، فيها دواء لكل من يتعلق بالناس: **ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع**.»

سأله هاشم: «ماذا تعني؟»

قال: «أن الذل الذي ينبت في الإنسان، أي أن تنحني أمام الناس وتتملقهم، لا ينبت إلا من بذرة واحدة: الطمع في ما بأيديهم. فمن قطع الطمع قطع الذل. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومن يتصبر يصبّره الله، وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» (متفق عليه).»

ثم قال: «فالافتقار إلى الله هو أصل **الاستغناء عن الناس**. من عرف أنه فقير إلى الله وحده لم يعد يحتاج أن يتذلل لأحد. وتأمل: الفقير الصادق لا يتسوّل من الناس، بل من الله. فإن احتجت إلى شيء، قدّم الدعاء قبل السؤال: يا رب، سخّر لي من يقضي حاجتي بغير ذل.»

وأعطاه عم سالم دعاءً يقوله كل صباح: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك» (رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث).

توسعة شرعية: الاستغناء وأحكام السؤال

قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: «ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير» (القصص 24). وقد شرح ابن رجب في *جامع العلوم والحكم* الحديث القدسي «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته»، فبيّن أن فيه إثبات فقر العباد كلهم إلى الله في الهداية والرزق والعافية والمغفرة.

أحكام سؤال الناس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم» (متفق عليه). وروى مسلم: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له

المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلّت له المسألة». فالأصل **حرمة السؤال** إلا من ضرورة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله» (متفق عليه). ومن أعظم الدعاء: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» (رواه مسلم).

ضابط: الافتقار إلى الله لا يعني التواكل ولا مدّ اليد، بل أن تعمل وتسأل الله وحده وتكف عن الناس ما استطعت.

وصية العابد

كلنا فقراء إلى الله في كل لحظة. فلا ترضَ عن نفسك، واطلب الهداية والرزق والعافية منه، وقل: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

المقام الثاني والعشرون

22 ما ينتفع به

بعد أسبوع من انتقاله إلى المستشفى، توفي عم سالم في ليلة هادئة. كان هاشم إلى جواره، يمسك يده. لم يكن هناك ما يُقال. في آخر لحظة نظر إليه عم سالم، وابتسم، ونطق الشهادة بصوت خافت كأنه يخشى أن يوقظ أحداً.

وفي الصباح التالي، حمل الصيادون نعشه على أكتافهم إلى المسجد القديم، والبحر يهمس خلفهم، والنوارس ترتفع وتنخفض في الأفق. ورأى هاشم من آخر الصف وجوهاً كثيرة لم يرها قط، لكنها كلها تعرف عم سالم: امرأة الفرن، وصبي القرآن، وعامل الورشة، وصيادون كانوا يستدينون منه فلا يطالبهم، ومعلم المدرسة. كلهم قالوا الجملة نفسها: «ما سمعناه يرفع صوته مرة.»

الدرس التاسع: العمل الذي لا ينقطع

وبعد الدفن، جلس هاشم على الصخرة نفسها التي كانا يجلسان عليها، وفتح الدفتر الأخضر. وفي آخر صفحة كتب عم سالم بخط مرتجف:

«قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (رواه مسلم). وقال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» (رواه مسلم). يا هاشم: أنا لا أخاف

الموت. وأرجو أن أكون أحسنت الظن. وإن كان في ما علّمتك علمٌ ينتفع به فعلّمه. وإن رأيت رجلاً يقلّب الملعقة في كوب فارغ فاجلس إليه.»

بكى هاشم بصوت منخفض، ثم رفع رأسه إلى البحر. كان الأفق يتفتق عن شمس باهتة، والموج يعيد حديثه الأزلي.

كيف تعلّم بلا ادعاء

وفي أول جلسة جلسها هاشم مع الشباب، سأله أحدهم: «من أين تعلمت؟ هل أنت شيخ؟»

أجاب هاشم كما أوصاه عم سالم: «لا. أنا طالب علم أحاول. وما أحكيه لكم تعلمته من رجل بسيط ومن كتب العلماء.»

وبعد الجلسة، جلس هاشم يراجع في دفتره آداب المعلّم التي ذكرها له عم سالم:

1. **الحكمة والموعظة الحسنة:** قال الله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (النحل 125). فلا تعنّف ولا تتعالى.

2. **البلاغ بقدر العلم:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بلّغوا عني ولو آية» (رواه البخاري). فبلّغ ما تعلم، وقل لا أعلم فيما لا تعلم.

3. **العمل قبل القول:** قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» (الصف 2). فكن أول من يطبق.

4. **الإحالة إلى أهل العلم:** إن سُئلت فتوى فقل: اسأل عالماً موثوقاً.

5. **الإخلاص:** لا تطلب شهرة ولا مالاً. وإذا ظهر فيك عجب فاستغفر.

وكتب في آخر الدفتر: «اللهم إني أعوذ بك أن أُضِلّ أو أُضَلّ، أو أَزِلّ أو أُزَلّ، أو أَظلِم أو أُظلَم، أو أَجهَل أو يُجهَل عليّ» (رواه أبو داود والترمذي وصححه بعض أهل الحديث)، وهو دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته.

توسعة شرعية: الدلالة على الخير والعلم النافع

قال الله تعالى: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء» (البقرة 261). وفي الصحيحين وغيرهما أحاديث في تضاعف الأجر لمن دلّ على الخير.

روى مسلم: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». وروى مسلم: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده». وفسّر العلماء السنة الحسنة بما كان له أصل في الشرع، كإحياء سنة ميتة أو بدء مشروع خير، لا ابتداع عبادة جديدة.

وروى مسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة». وقال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع» (رواه أبو داود والترمذي وصححه بعض أهل الحديث).

وصية للمعلّم: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمع، فرُبّ مبلَّغ أوعى من سامع» (رواه الترمذي وصححه بعض أهل الحديث). فبلّغ بأمانة، ولا تزد ولا تنقص، وانسب القول إلى قائله.

وبعد شهور، صار هاشم يجلس بعد الفجر على عتبة المسجد القديم، وحوله ثلاثة شباب يسألونه عن الدفتر. لم يقل لهم أنه صار معلماً، ولم يقبل أن يناديه أحد شيخاً. كان يقول: «اسمي هاشم. وما سأقوله لكم تعلمته من رجل كان يقول: لست شيخاً.»

وفتح الدفتر على صفحته الأولى، وقرأ لهم الأسئلة الثلاثة.

وفي أقصى المسجد، عند عمود رخامي قديم، جلس شاب لا يعرفه أحد، يقلّب هاتفه ويحدق في الأرض. نظر إليه هاشم نظرة سريعة، فرآه، فابتسم بهدوء. ثم أكمل حديثه مع الشباب الثلاثة، وبعد الصلاة سيذهب إلى الشاب.

وكان البحر يهمس في الخارج: **الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر.**

كلمة أخيرة من أخيك

يا أخي القارئ، هذا آخر الطريق في هذا الكتاب، وأول طريق في حياتك.

لقد رأيت في هذه الرحلة أن للقلب منازل: يقظة، ثم محاسبة، ثم توبة، ثم ذكر وصحبة وخشوع، ثم زهد ورضا ونفع، ثم مراقبة وإخلاص وصدق، ثم توكل وشكر وحياء، ثم محبة وافتقار. وهذه كلها أبواب لا تُفتح كلها في يوم، ولا تُتقن كلها في عمر. لكن من فتح واحداً وأحسنه فقد سار.

لا تطلب الأحوال، واطلب الأعمال. ولا تُظهر ما تجد، وإن وجدت شيئاً فاشكر وأخفِ. ولا تحتقر خطأك، ولا تيأس منه. وإن مررت يوماً بمن هو أضيع منك، فاجلس إلى جواره.

واذكر عم سالم بدعوة. فإن العلم الذي ينتفع به لا ينقطع بموت صاحبه.

خاتمة الكتاب

وصايا العابد

خ

1. اليقظة قرار، فاجعل لها وقتاً صغيراً ثابتاً.
2. حاسب نفسك بثلاثة أسئلة، وأصلح برفق.
3. تُب بلا قنوط: أقلع وندم واعزم وارجع.
4. وردٌ قليل ثابت بقلب حاضر خير من كثير غافل.
5. اجعل الكتاب والسنة ميزاناً فوق كل شيخ.
6. الخشوع عودة لا كمال.
7. الزهد ألا يملكك ما تملك، فاخفِ ظهورك وتصدق خفية.
8. الرضا طمأنينة مع أخذ الأسباب، فلا تحمل الحزن وحدك.
9. من أخذ فليعطِ: ارحم من في الأرض، واجلس إلى الضائع.
10. اجعل لك ثلاث وقفات: قبل الكلام، وقبل العمل، وقبل النوم.
11. اسأل قبل كل عمل: هل أفعله لو لم يعلم به أحد؟
12. قل «لا أعلم» ولا تعِد بما لا تملك، فالصدق يوفر عليك كثيراً.
13. اعقلها وتوكل: خذ بالأسباب كلها ثم سلّم النتيجة.
14. اكتب ثلاثة أشياء جديدة كل ليلة تشكر عليها.

15 استحِ من الله في الخلوة، واحمِ الباب بنفسك.

16 أحبّ آل بيت نبيك محبة تظهر في صلاتك ودعائك وصلة رحمك، بلا غلو ولا جفاء.

17 زُر لتدعو وتتذكر الموت لا لتعبد، واسأل الله وحده.

18 ابدأ بما يتفق عليه المسلمون قبل ما يختلفون فيه، وانصح برفق.

19 كن محمدياً بالاتباع بلا ابتداع، وبالاعتدال بلا غلو، وبالخلق: رفقاً وصدقاً وخدمة لأهلك.

20 المحبة تُزرع بالأعمال، فاتبع الرسول وتدبّر القرآن وقم ولو ركعتين.

21 كلنا فقراء إلى الله، فلا ترضَ عن نفسك.

22 علّم ما تعلمت ولو لواحد، فهو علم ينتفع به.



ميزان الكتاب

في ختام الطريق

عرفنا في أول الكتاب أن الطريق **يبدأ بالعين**، وعرفنا في آخره أنه **ينتهي بالقلب**. فالعين تنتبه، والقلب يحضر، والقلب الحاضر يصلح ما سواه. وبين الاثنين تتدرج المنازل: الظاهر فالباطن، والأخذ فالتسليم، والعمل فالمحبة، والفقر فالغنى.

ولنا أن نتأمل مفارقة في آخر الطريق: أن **أعمق** المقامات هي **أبسطها** في الظاهر. فالافتقار كلمة واحدة: «اللهم لا تكلني إلى نفسي». والمحبة عمل صغير مستمر. والمراقبة ثلاث وقفات. وهذا من حكمة الله: أن جعل أعظم الأشياء أيسرها في اللسان وأصعبها في الثبات.

والآفة الكبرى لمن بلغ شيئاً من هذه المنازل **الإعجاب بها**. فالمقام نعمة لا استحقاق، والحال هبة لا ثمن. ومن أعجب بمقامه سقط منه، ومن شكر وستر حُفظ له. ولهذا جعل ابن عطاء الله الافتقار أصل كل طاعة: لأن من عرف فقره حفظ نعمته.

والدرس الأخير مما فعله عم سالم لا مما قاله: أنه **علّم ثم اختفى**. فلم يترك كتاباً ولا مدرسة ولا طريقة تحمل اسمه، بل ترك رجلاً يعلّم آخر. وهذا أنقى وجوه العلم الذي ينتفع به.

وخلاصة الكتاب في سطر: **اعرف أنك مرئي، وأخلص، واصدق، وخذ بالأسباب وسلّم، واشكر واستحِ، وأحبّ واتبع، واعرف فقرك، ثم علّم غيرك واختفِ.**

ختام

خاتمة: مناجاة الختام

وهنا ننزل عن المنبر، يا أخي، ونقف كما يقف الفقراء على باب الكريم.

انتهت الصفحات، ولم ينتهِ الطريق. وما رأيته في هذا الكتاب من منازل ليست درجات تصعد عليها ثم تفتخر، بل أبواب تدخلها مرة بعد مرة. وهذا من لطف الله: أن جعل القرب لا ينتهي، حتى لا يقف العبد ويقول: وصلت.

فاسمع هذه المناجاة، وقلها بقلبك قبل لسانك:

إلهي، أنت الذي أيقظتني بعد غفلة، فلا تتركني لنفسي طرفة عين. وأنت الذي سترتني وأنا أعصيك، فاستر عليّ وأنا أرجوك. وأنت الذي جمعتني بمن علّمني الخير، فلا تحرمني شكره ولا العمل به.

ويُنسب إلى ابن عطاء الله السكندري في مناجاته المشهورة قوله: «إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟» (فراجع نص المناجاة). وما أصدق هذا في فم من عرف نفسه: فكل ما عندنا من علم وعمل وصحة وفهم عارية، يستردها المعير متى شاء، ولا حول لنا ولا قوة إلا به.

يا مقلّب القلوب، ثبّت قلوبنا على دينك. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا. ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. اللهم ارحم من علّمنا، وأصلح من تعلّم منا، واجعل ما كتبناه علماً ينتفع به ولا يكون علينا حجة.

وإن كان في هذه الصفحات ما أخطأ فيه القلم أو الفهم فاللهم اغفر لنا، وإن كان فيها ما أصاب فيه فهو منك وإليك لا لنا.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.»

توثيق

ملاحظة المؤلف عن المصادر

ن

الآيات من القرآن الكريم بالسورة والآية. والأحاديث بالراوي، وقد ذكرت الدرجة حيث اختلف المحدّثون، فراجع كتب التخريج للتأكد. وأما أقوال الصالحين والكتب المذكورة فنقلتها من الذاكرة، وهي: منازل السائرين لأبي إسماعيل الأنصاري الهروي (اليقظة والصدق من المنازل)، ومدارج السالكين لابن القيم (المراقبة والمحبة)، والرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي، وإحياء علوم الدين للغزالي (كتاب المحاسبة والمراقبة، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)، والحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري، ورياض الصالحين للنووي (شروط التوبة)، والرسالة القشيرية (التفريق بين المقام والحال، وتعريف المراقبة، وقول الجنيد في ضبط الطريق بالكتاب والسنة). وما نُسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قول «حاسبوا أنفسكم» مشهور عنه وإن اختلف في إسناده. وما نُسب إلى الفضيل بن عياض في الرياء والإخلاص مشهور عنه، وما نُقل عن رابعة العدوية في المحبة تتباين فيه الروايات. ودعاء الاستخارة ثابت في صحيح البخاري، وحديث «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث وضعّفه آخرون. والطرق الصوفية

وأعلامها المذكورون (الشاذلي والمرسي وابن عطاء الله والبدوي والدسوقي والرفاعي والجيلاني) أسماء معروفة تاريخياً، وتختلف الآراء في الحكم على ما نُسب إليهم أو إلى طرقهم من ممارسات.

وفي جزء المودة في القربى: صحيح مسلم (حديث عائشة في الكساء، وحديث زيد بن أرقم «أذكّركم الله في أهل بيتي»)، وصحيح البخاري (قول أبي بكر الصديق في أهل البيت، وتفسير ابن عباس للآية 23 من سورة الشورى، وحديث «لا تُشدّ الرحال»)، وسنن الترمذي (حديث «سيدا شباب أهل الجنة»، وحديث أم سلمة في الكساء). وما نُسب إلى الإمام الشافعي من أبيات في حب آل البيت ذكرته بالمعنى. وما ذُكر من مشاهد في القاهرة (الحسين، زينب، نفيسة، سكينة، رقية) تختلف الروايات التاريخية في نسبة بعضها وموضع بعضها. وفي فصل المنهج والسلوك: صحيح البخاري (حديث الثلاثة نفر، «كان في مهنة أهله»، «إن الدين يسر»)، وصحيح مسلم (حديث «ما كان الرفق في شيء»، وصلاة الضحى، وقول عائشة «كان خلقه القرآن»)، وسنن الترمذي وأبي داود (حديث «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»، «خيركم خيركم لأهله»، «تبسمك في وجه أخيك»)، ومسند أحمد (حديث «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» وحديث خصف النعل وخياطة الثوب). ودرجات بعض هذه الأحاديث تختلف فيها أقوال المحدّثين، فراجع التخريج. والخلاف في التوسل وشدّ الرحال وبناء المشاهد خلاف بين علماء معتبرين، فراجع كتبهم وسل أهل العلم في بلدك.

وما ورد في المقدمة والخاتمة من أدعية فمن القرآن والسنة (حديث «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» رواه مسلم، ودعاء «يا مقلب القلوب» رواه الترمذي وابن ماجه، ودعاء «اللهم أصلح لي ديني» رواه مسلم، وكفارة المجلس رواها الترمذي، وخاتمة سورة الصافات). وما نُسب إلى ابن عطاء الله من مناجاة فمشهور عنه، ويحسن مراجعة نصه من مصادره. أما الأشخاص (هاشم وعم سالم) فمن خيال المؤلف. وهذه رواية للتزكية والاعتبار، وليست مرجعاً في الفتوى. فمن احتاج حكماً شرعياً فليسأل أهل العلم الموثوقين في بلده، ومن احتاج علاجاً نفسياً أو طبياً فليراجع الطبيب.

تمّت الرواية

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

يقظة قليلة. ورد ثابت. وقلب يعود كلما شرد.